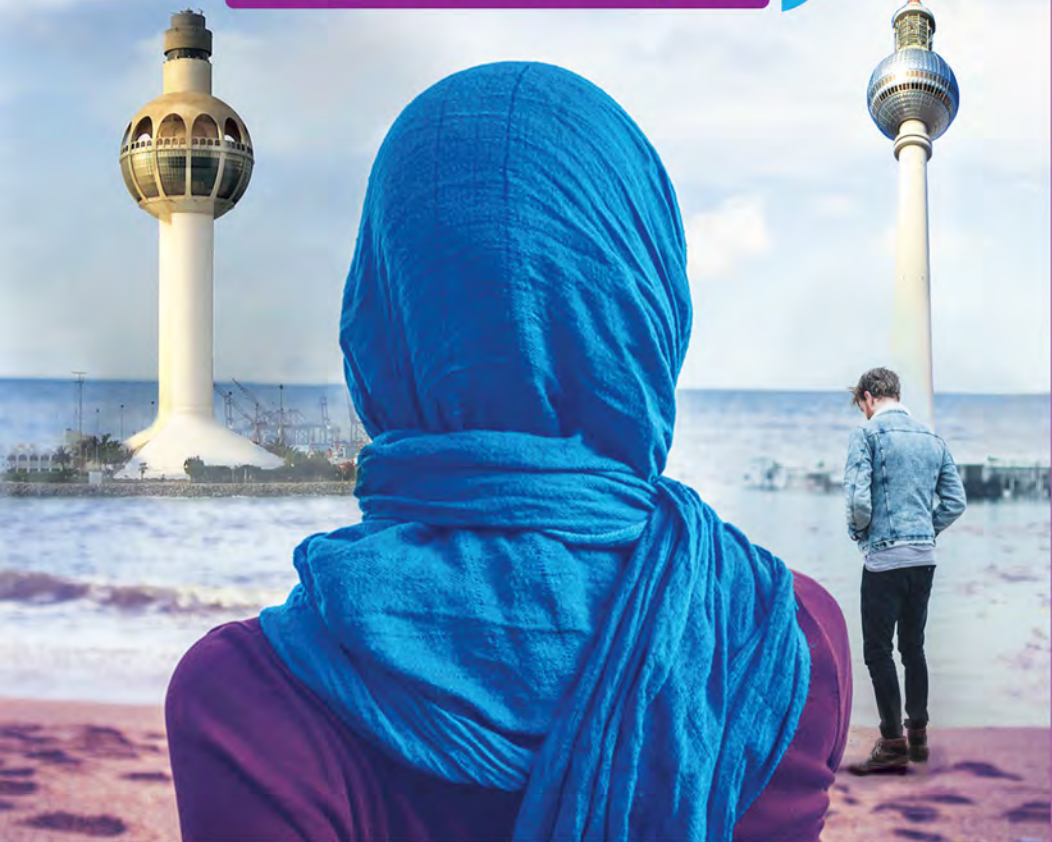


"ولنا في تلك المدينة المزدحمة ذكريات"



لأننا في مكان آخر

رشا خياط

ترجمة: محمد السيد



روايات مترجمة



لأننا في مكان آخر

لأئنا في مكان آخر

تأليف: رشا خياط

ترجمة: محمد السيد

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 2018/1688

الترقيم الدولي: 9789773193942

الغلاف: آلاء هيكل

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: خالد رجب عواد

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg



© 2016 by DuMont Buchverlag, Cologne, Germany

Original Title: Weil wir längst woanders sind

Rasha Khayat's photo credit: © Anna Maria Thiemann

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا



@alarabipd

رشا خياط

لأننا في مكان آخر

رواية من ألمانيا

ترجمة: محمد السيد





The translation of this work was supported by a
grant from the Goethe-Institut.

بطاقة فهرسة

خياط، رشا

لأتنا في مكان آخر: رواية من الأدب الألماني / رشا خياط؛ ترجمة محمد السيد.
- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018.

ص: سم.

تدمك 9789773193942

1- القصص الألمانية

أ- السيد، محمد (مترجم)

ب- العنوان 833

إلى "حياة"

”والواقع أني تعلّمتُ، وحياتي مليئة إلى هذا الحد بتنافر

الأصوات، أن أوثر إلا أكون سويًا تمامًا، وأن أظلّ في غير مكاني“

إدوارد سعيد، "خارج المكان"

الثلج



ذات يوم، ظلت السماء تمطر ثلجًا طوال الليل في هدوءٍ تامٍّ دون أن يشعر أحد بذلك. تغيَّرَ حال الجو مثلما لم يفعل من قبل. أضحَّت ستارة نافذة غرفة المعيشة كما أفعَلُ كل صباح، حينها اكتشفْتُ ذلك الأمر.

لم نكن قبلها قد رأينا الثلج، عرفناه فقط من كتب الأطفال وبرامج التلفزيون الألماني التي اعتاد جدانا تسجيلها على أشرطة الفيديو، وإرسالها إلى بيتنا مصحوبة بكيسة الكريسماس في عطلة عيد الميلاد، أو شوكولاتة في عيد الفصح. عرفنا الثلج كذلك من خلال الصور، وأيضًا رأينا صورًا لأمي،

"باربرا"، في طفولتها وهي ترتدي ملابس التزلح على الجليد وتقف على قطعتين خشبيتين ويساعدها أخوها على التزلح في طريقٍ مغطى بالجليد.

وها هو الثلج قد رأيناه في الشرفة، داخل قصرية الزرع ذات الورد المقطوع، وعلى الكرسي البلاستيك المهمل في الشرفة منذ شهور.

وقفْتُ ممسكًا بحبل الستارة، ومرتديًا ملابس النوم وقدماي عاريتان، ودققْتُ النظر وأنا لا أصدق ما أراه. كانت السماء شاحبة اللون، وتكاثرت السحب حتى إنني ظننتُ أنها من ثقلها ستسقط وتلتصق بالوردة التي وضعتها "ليلي" داخل قصرية الزرع في الصيف. وقف طائر الكروان على حافة إحدى قصرية الزرع، وبدأ يبحث بمنقاره بين الورد المُقطَّع. سمعت خطوات "ليلي" من خلفي هادئة حتى وقفت بجانب مرتدية قميص نومها وقدماه عاريتان. تمسك "ليلي" في يدها اليمنى دمية على شكل أرنب. صديقتها طوال سنوات عمرها السبع، كما تلازمها في سريرها في أثناء نومها، أمَّا يد "ليلي" اليسرى فقد أمسكت بيدي ورفعت رأسها لتنظر إليَّ وكأن أسئلة ما تدور برأسها.

أفلتُ من يدي حبل الستارة وفتحت الباب، دخلنا معًا إلى الشرفة المغطاة بالثلج الناعم، حيث كان الهواء باردًا نشم منه رائحة المطر وعوادم السيارات. دخلنا ببطء وتركت أقدامنا أثرًا في طبقة الثلج الناعمة. أصابتنى الرعشة في قدمي بسبب ذلك الثلج الأبيض. انحنيتُ لأتحسسهُ ولأتأكد من أنه يذوب بمجرد لمسه. وبينما ارتعشت يدا "ليلي" وساقها وأخذت ترتجف، شعرتُ أنا بنعومة الثلج وهو يحتضن راحة يدي. فبسّطت كامل أصابع يديّ وقبضتهما ثانية،

وكررتها مرتين أو ثلاث مرات. أزحت كومة صغيرة من الثلج ونثرتها على الأرض حتى غاصت يداي في بركة صغيرة من الماء.

اعتدلت ونطرت الماء عن أصابعي المبللة، وأحطت "ليلي" بذراعي. وضعت "ليلي" دميتهما الأرنب جانبًا واستلقت على أرضية غرفة المعيشة في وداعة وهي تفتت بين يديها قطعةً من الثلج حتى صارت ماءً بين أصابعها. وجففت يديها الصغيرتين في قميص نومها ذي اللون الزهري في ابتهاج.

تحت الشرفة - في الشارع - يزيح رجل ما الثلج من الرصيف، وفي جراج السيارات الخاص بالسوبر ماركت، تمسك سيدة بقطعة من الكرتون وتلمّع بها الزجاج الأمامي لسيارتها.

همست "ليلي" بصوت يكاد لا يُسمع قائلة:

- هل بإمكاننا أن نأكل هذا الثلج؟

وأكملت قائلة:

- إن أبطال قصة "رونيا ابنة اللص" Ronja Räubertochter يمصون الثلج أيضًا. دعنا

نجرب مص الثلج يا "باسل".

كانت تنظر إليّ بعينيها السوداوين الكبيرتين، لم يكن شعرها ممشطًا، فبدت في هيئتها

وكانها تشبه بطلة قصة "رونيا ابنة اللص".

أخذت بعض الثلج من المسند الخلفي للكرسي البلاستيك، وأعطيت "ليلي" نصفه في يدها. لعقنا بعضه أولاً في حذر، ثم وضعناه سريعاً في أفواهنا، وابتلعناه ونحن في حالة ارتباك لما نفعله. نشعر وكأننا نبتلع أقراصاً طبية أو كأننا نشرب دواء كحة. ظهرت على وجه "ليلي" علامات الضيق، أما أنا، فأخذت أمضغ على مهل وأنا أشعر بصوت الثلج يتفتت بين أسناني. لم يكن للثلج في أفواهنا أي مذاق. رأيت في نظرات "ليلي" شعوراً بخيبة الأمل، وكذا كان شعوري أيضاً، وبخاصة أننا لا نعرف ما ينتظرنا من مصير بعد هذه الفعلة.

وفي داخل الشقة، سمعت خلفنا صوت باب الحمام يُغلق، وبعدها بقليل سمعنا صوت ماء الدش. فدفعتُ "ليلي" سريعاً إلى داخل غرفة المعيشة وأغلقت باب الشرفة.

في يوم آخر من الأسبوع نفسه، اصطحبنا جدانا إلى الحديقة العامة. قالت جديتي: "إن البحيرة مغطاة بالجليد الذي يُمكن أن نتزلق عليه مع باقي أصدقاء المدرسة". لدى جدي حذاءان للتزلق. وفي حين ملأت جديتي ثورمُس بالكاكاو ووضعت بعض المخبوزات في كيس بلاستيك، ركن جدي سيارته الحمراء في الشارع في طابور طويل من السيارات المركونة. توجهنا إلى الحديقة، وكان بعض الأطفال يلهون بكرات من الثلج، وآخرون يحملون أحذية التزلق على أكتافهم.

أمسكت "ليلي" بقبعتها الصغيرة المصنوعة من الصوف والتي ظلت تسقط على الأرض مراراً وتكراراً بسبب شعرها الكثيف. أخذت جديتي القبعة منها ثم ربطت

خصلات شعرها، ووضعت القبعة على رأسها مجدداً. بعدها، نظرت "ليلي" إليّ باستغراب وهي ترى كُتفِيَّ يرتعدان. على قبعتي المنقوشة باللون الفيروزي، التي أعطتني إياها جدتي منذ عدة أيام، شعار لأحد أندية كرة القدم لا أعرفه.

نزلتُ من السيارة ممسكاً في كل يد بفردة حذاء التزلق وأنظر إلى باقي الأطفال. كانت السماء مُطرَ ثلجاً قبل الظهر. وبجوار باب الحديقة، كونت مجموعة من الفتيات رجل الثلج. رأيتُ زملائي في الفصل "باتريك" و"ستيفان" في المنطقة الخضراء بجوار البحيرة ومعهم أحذية التزلق ومضرب للهوكي أسود اللون. دخل الطفلان منطقة الجليد، وبدءا في التزلق في منحنيات دائرية حول مجموعة من الفتيات من الفصل الآخر، وكانا أيضاً يضربان كرات الثلج بمضرب الهوكي. وبينما كانا ينظران باتجاهنا، نظرتُ إلى الأرض وأقامت بحذاء البوت جبلاً صغيراً من الثلج.

قالت جدتي:

- هيا يا أولاد! لتشاركنا في التزلق.

انحنت على ركبتيها لتربط حذاء "ليلي". لم تكن جدتي قد ارتدت بنطلوناً في حياتها قط، فهي تفضل ارتداء الفساتين سواء المخططة أو المنقوشة بالورود. لذلك ابتلَّ جوربها الطويل والجاكيت المصنوع من الصوف بالماء عندما جلست على ركبتيها، حتى ظهرت بقعة دائرية من الماء على ركبتيها وجرت كالنهر إلى أسفل ساقها حتى وصلت إلى داخل البوت.

أبعدت "ليلي" ساقها اليمنى قليلاً وهي تقول:

- لا أستطيع القيام بذلك.

ردت جدتي:

- الأمر بسيط، كل ما عليكما فعله هو أن تمشيا بشكل طبيعي، حتى الأطفال في الصف

الأول يستطيعون القيام بذلك، انظرا إلى حجم المتعة التي يسببها التزحلق.

مدت "ليلي" ساقها إلى جدتها مجدداً في تردد لتواصل ربط حذاء البوت لها.

كان حذائي ضيقاً عند مشط القدم، لذا شعرت بالألم عندما وقفت على طريق التزحلق.

قالت جدتي:

- الآن تبدو انكباقي الأطفال، أمسك بأختك يا "باسل" وابدأ في التزحلق، سننتظركما هنا،

لا تقلقا، هيا.

أمسكت "ليلي" بيدي وبدأنا في التزحلق. سقطت "ليلي" على الأرض

وجذبتني معها. وتشابك حذاؤها مع جاكيت التزحلق الطويل. كانت ركبتاي

ترتعدان من البرد والخوف، فاندكأت على جذع شجرة واعتدلت وساعدت "ليلي"

على الوقوف. تقدمت "ليلي" ثلاث خطوات صغيرة في حذر. تتطايرت حولنا

كرات الثلج، وجرى كلب باتجاهي كاد يصطدم بي وهو يحمل عصا صغيرة في

فمه وينظر إليّ نظرة عتاب. ظلت "ليلي" ساكنة في مكانها وهي تنظر إليّ وأنا

أتحرك ببطء. امتلأ الجليد أسفل مني بالثقوب، فجعل حذائي يتشابك بين قطع الثلوج، كما أن الكلب ظل ينظر إليّ وهو يمر ببطء بجانبه وكأنه يريد أن يقول لي: "هيا، لقد فعلتها، أنا أيضًا أستطيع التزحلق وأنا أحمل عصا في فمي في الوقت نفسه".

تنفست بعمق، لكن فاجئني الهواء البارد وشعرت بالألم في رثتي، لذا أغلقت شفتي بقوة، وبدأت أقلد حركة باقي الأطفال في التزحلق. أتجه بالجزء العلوي من جسمي إلى الأمام، وأفرد يديّ جانبًا. وقف الكلب بجوار "ليلي" وظلا ينظران إليّ.

سمعت صوت جدي من خلفي وهو يقول:

- لا تقفا هكذا يا صغيريّ، تعالي يا زوجتي كي نريهما كيف يتزحلق المحترفون على

الجليد.

لم تستجب جدتي لنداء جدي، فأمسكها من يدها وجذبها على الجليد واضعًا يده اليمنى

على خصرها وبدأ يتزحلق مؤديًا حركات راقصة.

قالت جدتي ضاحكة:

- لا تكن مجنونًا.

كانت جدتي قليلة الضحك. تحرك الاثنان معًا على الجليد، وكانا لا يرتديان أحذية التزلج، ولكن فقط حذاء البوت الشتوي، تحرك جدي قليلًا ثم قفز وهو يغني أغنية قديمة.

تجمع عددٌ الناس حولهم، ثم استمر عددهم في التزايد. أخذوا يصفقون ويضحكون. تزلج جدي على الجليد بسرعة وهو يلفُّ جدي حوله. ترك الكلب مكانه بجوار "ليلى" وذهب حيث جدّاي وبدأ يتشممهما. تمايلت جدي بجسدها إلى الخلف والناس من حولهم يرقصون مع الإيقاع، وما زالت بقعة الماء واضحة على ركبتيها.

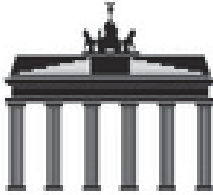
أمسكت "ليلى" بيدي وضحكت وخلعت قبعتها بيدها الأخرى وألقتها على الأرض، وهزت خصلات شعرها كما تفعل جدي وندنت مع الإيقاع بصوت خافت وهي تتمايل ناسيةً الحذاء الصعب الذي ترتديه في قدميها.

عندما عدنا مرة أخرى إلى السيارة، عادت السماء لتمطر ثلجًا مرة أخرى. بدأت الغيوم تتزايد في السماء، واشتعلت المصابيح في الحديقة وأضاءت الجليد بنورها ذي اللون الأصفر الرملي.

رأني "ستيفان" و"باتريك" فانطلقا نحو قائلي:

- في المرة القادمة، علينا أن نلعب الهوكي، فأبونا لديه العديد من المضارب في الجراج. فأومأت برأسي وودعتهما ممسكًا بحذاء التزلج الخاص بي في يدي.

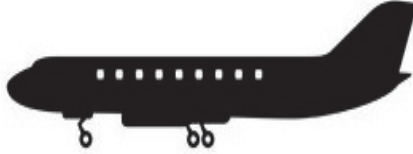
جاءت "ليلي" ممسكةً بيد جدتي، في حين ظلَّ جدي يغني وهو يفتح السيارة. نظرت
"ليلي" إلى السماء وفتحت فمها محاولة التقاط بعض الثلج في فمها. مسحتُ على رأسها ذي
الشعر الأسود الذي علقت به بعض نُدفات الثلج وأنا أقول:
- هيا اصعدي سريعاً إلى السيارة حتى لا تصابي بالبرد.
فصعدت "ليلي" إلى السيارة، وجلست على الكرسي الخلفي. وفي الطريق، وضعت رأسها
المبُلل على كتفي وهي تقول:
- هل انتهى الأمر وسنعود إلى البيت مجدداً يا "باسل"؟



- هل تتذكرين يا "ليلي"؟

- نعم، أتذكر يا أخي.

الرحيل



كانت المناشف الورقية قد نفذت، فمسحتُ يديَّ المبللتين في قميصي ونظرت في المرأة المتكاثف عليها بخار الماء. لاحظت أنني كان يجب عليَّ أن أحلق ذقني. تحسستُ ذقني الممتلئ بالشعر بأصابعي. رأيت صورتني في المرأة. أبدو متعبًا وأكبر سنًا مما تخيلتُ نفسي، ربما يكون الضوء الساطع هو السبب. دخل أحدهم إلى الحمام مرتديًا بدلة. يبدو أنه رجل أعمال. ترك الباب مفتوحًا لي لكي أخرج. فكرتُ في أن أدخن سيجارة أخرى بسرعة، ولكن منطقة التدخين كانت على الجانب الآخر من صالة المطار.

وفي منطقة الانتظار، وقف في طابور أمام البوابة آخر ركاب سيصعدون الطائرة. في تلك اللحظة، فكرتُ في تأجيل السفر، فما زال هناك مُتسع من

الوقت قبل موعد الزفاف. يمكنني أن أذهب إلى خارج المطار وأن أستقل القطار إلى هامبورج، ثم أذهب إلى العمل غدًا أو ربما أعود مرة أخرى إلى الجامعة. حينها ستكون حقيبتني قد وصلت القاهرة ومنها إلى جدة، ثم ستستقر فوق سير الحقائقب في المطار حتى يكتشف أحدهم الأمر فيأخذها إلى غرفة التخزين محاولًا كشف هوية صاحبها. وفي الغالب سيفتحون الحقيبة ويأخذون ما فيها كالحذاء الرياضي والتي شيرت والبدلة التي أصرت "باربرا" أن آخذها معي.

وفي تلك اللحظة، نادى أحد العاملين في المطار مرتديًا كرافتة بوليستر رفيعة سوداء:

- المتجهون إلى القاهرة، هل ما زال هنا من يريد التوجه إلى القاهرة؟

أخرجت تذكرة الطيران من جيبي، وسرّْتُ بخطوات سريعة ناحيته وأعطيته جواز السفر

والتذكرة، فوضعهما على الـ"سكانر" ثم نظر إليّ وعلى فمه ابتسامة مصطنعة قائلاً:

- رحلة سعيدة!

كنت آخر من دخل الطائرة. أغلقوا الباب وحيثني المضيئة الواقفة على باب كابينة الطيار

في ودّ وكانني لم أتسبب في تأخر الإقلاع، ثم أوصلتني إلى الكرسي الخاص بي في الدرجة الأولى.

أقاربي في جدة هم الذين حجّزوا لي تذكرة الطائرة ورتبوا كل شيء. حيث تخيلوا أن سفري

إليهم على الدرجة الاقتصادية سيكون سخيفًا، وهم بذلك يريدون مني أن أكون جيدًا معهم،

إلا أنني لن أعطيهم الفرصة لذلك.

كان الكرسي بجواري فارغاً، فوضعت فوقه البطانية الصوف والمخدات البيضاء وحقيبة صغيرة عليها رمز شركة الطيران، ثم ربطت حزام الأمان ونظرت من النافذة. كانت الساعة الثانية والربع والسماء تمطر. رأيت الملاح الجوي الذي يرتدي جاكيتاً أصفر فسفورياً وهو يمر بعربته الصغيرة بجوار الطائرة.

أتجّه الآن إلى بلد أحتجُّ كل بضعة أسابيع على الأوضاع السياسية فيها على الإنترنت، وهو نفس ما يفعله نحو تسعين بالمئة من جيراني في حي "سانت باولي" أيضاً. لن يسافر أحد من هؤلاء الجيران أبداً إلى تلك الدولة حتى لو أمكنهم ذلك، فما السبب الذي قد يدفعهم للسفر إلى هناك؟ فليس هناك ما يدفعهم للسفر إليها. فكرت في أن "ليلي" هناك لن يمكنها أن تقود سيارتها، بل سيكون هناك سائق خاص بها. ولن تتمكن من الذهاب إلى السينما التي تحبها؛ لأنه لا توجد أي سينما في تلك الدولة. يؤسفني كثيراً عدم وجود سينما هناك.

كانت كل تلك الأفكار التي راودتني في تلك اللحظة بالغة الصعوبة عليّ. فعندما أفكر في جدة، أتذكر الرمان والخبز العربي اللذين كانوا يرسلونهما في الماضي إلينا في ألمانيا. وزّعت المضيفات مشروبات ومجلات ومناديل جافة ومبلة على ركاب الدرجة الأولى، ودخلوا إلى الدرجة الاقتصادية.

أشاهد على شاشة الكرسي أمامي شريط فيديو يشرح تعليمات الأمان. بدأت الطائرة تتحرك. انتظرت لحظة الانطلاق حتى أتمدد في الكرسي. في تلك اللحظة، حاولت أن أفكر في "ليلي" وفي أبي، أو يمكن القول إنني حاولت أن

أنساها وأفكر في قصاري الزرع التي ربما ستموت عطشًا حتى أعود إليها. وفي اللحظة التي ظهر فيها أمامي على الشاشة كارتون يُصوّر رجلًا يمسك طوق نجاة ويضع المنفخ في فمه. تذكرت موسيقى كارتون "كابتن ماجد" الذي كنا نشاهده في صغرة في غرفة المعيشة المكيفة. كنت أنا و"ليلي" حينها نتحدث معًا عن كل حلقة.

فككتُ حزام الكرسي، ورأيت الرجل الجالس في الناحية الأخرى من الممر يخلع حذاءه ويرتدي قناع النوم، ثم يرجع بظهر الكرسي إلى الخلف. لم أكن أعلم هل أنا مُرتّبك أم أنني فقط متعب من الأسابيع الأخيرة والمحادثات التليفونية مع "باربرا" التي طرحته عليّ أسئلة كان من الأفضل أن تطرحها على ابنتها. فكرت في الذهاب إلى الحمام لأرش بعض الماء على وجهي، لكن المضيفات كن يوزعن قائمة الطعام لتناول الغداء.

قالت المضيفة باللغة الإنجليزية:

- يمكنكم الاختيار بين اللحم البقري أو السمك أو الوجبات النباتية، ويُقدم معها السلطات والفاكهة. أتمنى رحلة سعيدة للسادة الركاب العرب والأجانب.

كانت معدتي تقررر جوعًا، فلم أكن قد تناولت طعام الإفطار على الرغم من أن "باربرا" لا يمكنها أن تتحمل خروجي من البيت دون تناول الإفطار، فهكذا كان الأمر دائمًا معها ولا يهمها كم أصبح عمرنا أو منذ متى ونحن نعيش بعيدًا عنها، فما يهمها هو ألا نخرج من المنزل دون تناول الإفطار حتى ولو كانت

هي تفعل غير ذلك، فهي تشرب القهوة وتدخنُ سيجارتين فقط، أمّا الأطفال فيجب أن يتناولوا إفطارهم.

كانت "باربرا" قد قابلتني في اليوم السابق في محطة القطارات. من المؤكد أنه كان يمكنني السفر بالطائرة مباشرة من هامبورج بدلاً من أن أطيل المسافة بلا جدوى وأضيع الوقت، ولكن جرى العرف على أننا نبدأ سفرنا الطويل من "دوسلدورف" حتى نقضي معها الليلة السابقة للسفر.

ولذلك كنت قد طلبتُ من ابن عمي أن يحجز لي التذكرة من "دوسلدورف" على أمل أن "باربرا" ربما تريد أن تعطيني شيئاً لـ"ليلي" كرسالة مثلاً أو أن تقرر في آخر لحظة أن ترافقني إليها. تفكير أحمق لأن شخصية "باربرا" لا تحب المفاجآت.

ظللنا في اليوم السابق أنا و"باربرا" جالسين على مائدة المطبخ بعد الظهر وحتى وقت متأخر نشرب القهوة وندخن السجائر. كانت "باربرا" تدخن بشراهة وهي تقول لي إن ضغط العمل في المستشفى هو الذي يمنعها من مرافقتي.



ننادي أنا و"ليلي" دائماً "باربرا" باسمها الأول، وتسميها "ليلي" أيضاً بـ"الأم" و"الناظرة" و"سيدة المنزل". تبدو "باربرا" بملامح وجهها الصارمة الجادة وأصابعها الطويلة أصغر من سنوات عمرها السبع والخمسين، فهي تعتني بأظفارها دائماً، وشعرها قصير ومهندم، كما تلون حاجبيها دائماً عند

الكوافير وتحدهما، ولذا يُعجب بها الأطباء في المستشفى الذي تعمل به، فهي نشيطة ويمكن الاعتماد عليها ولا تصرّح برأيها في أي أمر وتدافع دائماً عن الممرضين والممرضات الصغار. كانت "ليلى" تتمنى لو أنها تربت مع هذه السيدة التي دائماً ما تعلم واجباتها وما لها وما عليها كما أنها اجتماعية مع الآخرين.

أمامنا على مائدة المطبخ مئات القطع المفككة من لعبة البازل، قطع زرقاء وخضراء ورمادية وحمراء، كل قطعة لها حواف ورؤوس وأجزاء بارزة. كانت أضلع البازل قد تم تكوينها. كان مرسوماً على غطاء الصندوق صورة "تاج محل" وخلفه سماء زرقاء مع آبار مهجورة كلها مرسومة بالفوتوشوب.

بدأنا نضع قطع اللعبة بجوار بعضها البعض دون أن نتحدث، ونبحث عن قطع تكمل صورة السماء وصورة الأبواب والشبابيك. وأعجبتني الأمر لأننا لم نكن في حاجة للتحدث.

في أثناء اللعب، سألتني "باربرا":

- هل أرسلت إثبات القيد إلى التأمين؟

فأومأت برأسي أن نعم، فأكملت هي صورة السحاب ونظرت إليّ نظرة توحى بأنها لا تصدقني. وبالطبع كانت محقة.

وقفْتُ لأنني لا أعرف ما ينبغي قوله واتجهت إلى الثلاجة وتناولت الكوكاكولا، وسألتها:

- هل ترغبين في تناول شيء؟

فهرت رأسها أن لا.

هناك، على باب الثلاجة، صور لنا في طفولتنا مثبتة بقطع مغناطيس ملونة اشترتها "باربرا" في أثناء رحلاتها. كما توجد عدة صورٍ لفنار ولطائر نورس ولقصر "نويشفانشتاين" ثبتناهم أنا و"ليلي" على الباب. في ذلك اليوم، جلسنا في حديقة جدينا نأكل "الوافل"، وأخرجت "ليلي" حينها لسانها الذي تحول إلى اللون الأحمر من أثر الكريز.

جلستُ بجانب "باربرا" أنظر إلى صور طفولتنا. حاولت أن أتذكر طفولتي، ما الذي كان يدور برأسي وماذا كان يريد هذا الطفل الصغير أن يقول لتلك الفتاة التي تأكل الكريز، إلا أنني لم أستطع التذكر.

بعدها قلت لـ"باربرا" إن رحلة الطيران ستكون غداً في الثانية بعد الظهر. حينئذ، أصبح الصمت أكثر إزعاجاً، ولكن كان يجب عليّ أن أفتح هذا الموضوع الذي لم نتطرق إليه في حديثنا.

قلت لـ"باربرا":

- ما زال بإمكانك حجز تذكرة والسفر معي.

فأجابت:

- لا يمكنني السفر، ولن يعطوني إجازة.

ثم أمسكت بصورة المئذنة وأخذت نفساً من سيجارتها.

فقلت لها:

- لا أظنُّ أن أحداً سيعترض على حصولك على إجازة لمدة أسبوع للسفر لحضور فرح

ابنتك.

فردت "باربرا":

- إن أختك لم تعد تتصرف بعقلانية يا "باسل".

عدتُ إلى المائدة وأحطتها بذراعي لأهدئ من هذا الانفعال الذي بدا عليها. إلا أنها لم

ترحب بهذا التصرف، فرفعت ذراعي عنها وقلت:

- أظنُّ أنها ستسعد بوجود أمها معها في فرحها.

فردت "باربرا":

- أتظنُّ أنها ستهتم بذلك؟ إن هذا الأمر أيضاً سيتم على حسب مزاجها، تماماً كما فعلت

عندما سافرت منذ أكثر من عامين كاملين، ولم نعلم شيئاً عنها. ثم فجأة، أصبحت تريد

أن تتزوج رجلاً غريباً في بلدٍ لا يسمح لها بفعل شيء. إنها تتصرف بجنون وأنا لا أشجع

ذلك.

فقلت لها غاضباً:

- إنها تقول إن هذا البلد موطنها.

قالت "باربرا":

- هذه حماقة، موطنها هنا أو في هامبورج، ما الذي تريده من ذلك البلد الغريب! إنها لا تعرف أحدًا هناك. وكالعادة، ستفكر كما يحلو لها وتفرض إرادتها، وأنا لا أعتز على ذلك، لكنني لن أشجعها عليه.

بدت عروق رقبة "باربرا" منتفخة من الضيق. كانت هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها وجود تجاعيد حول عينيها.

أصدرت غسالة الأطباق صوتًا، فوقفت "باربرا" وفتحت باب الغسالة فخرج منه بعض البخار، ثم أخرجت الأواني وفرزتها وقالت:

- يا له من منظم سيئ، انظر إلى السكين، إن كل شيء ما زال متسخًا.

تقوم "باربرا" دائمًا بتنظيف البيت وتغيير موضع الأثاث فيه باستمرار. أتذكر عندما ماتت جدتي قبل أعوام قليلة، لُقّت "باربرا" بعض أدوات المائدة في مناديل بعد الجنائز، وقسّمت الجبنة إلى قطع، ثم حملت الصواني من غرفة إلى غرفة أخرى. فبينما كانت غرفة المعيشة دافئة، كان جو البدروم المخصص للغسيل باردًا. وكانت تقول إن المكان لا يكفي لوضع قطعة الجبنة كاملة دون تقطيع.



كنت أنا و"ليلي" جالسين في يوم جنازة جدتي على الكنبّة في صمت نشاهد مباراة كرة قدم. كانت "ليلي" تبكي، لكن "باربرا" لم تهتم ببكائها.

فقلت "ليلي" لي وهي ممسكة بفنجان الشاي:

- حتى إذا أغلقت الباب على نفسك، ستشعر بعدم الأمان وسط الضباب الذي يحيط بك، إنها ما زالت تتحرك كثيرًا يا "باسل"، فلماذا لا تجلس؟

فأجبتها:

- إنها تشغل نفسها عندما يزيد الجمل عن طاقتها، كلنا نعرف ذلك.



تذكرت كل ذلك عندما رأيت "باربرا" وهي تلمع السكين باستخدام فوطة المائدة، ثم

تضعها في علبة أدوات المائدة.

قلت لها:

- استريح يا أمي.

فردت:

- يجب أن أنظفها أولًا.

- لدينا الوقت الكافي لذلك. يمكنني أن أفعل أنا ذلك.

ظلت تنظف الأواني ثم جلست إلى المائدة. غطى البخار عدسات نظارتها، فلم أستطع رؤية عينيها بوضوح. أخذت سيجارة من العلبة، وانكأت على الكرسي وأشعلتها ثم سحبت نفسين. قالت:

- ابني ذو الواحد والثلاثين عامًا لم ينته من تعليمه بعد ويعمل في بار صغير، وابنتي أنهت تدريباً عملياً في بيع الكتب قبل تخرجها وأنفقت كل ميراثها، وتريد بعد مرور واحد وعشرين عامًا أن تعود إلى بلدٍ لا تعرفها لتتزوج من لا تعرفه أيضًا. هل تعتقد يا "باسل" أنني أريد مقابلة هؤلاء الناس لأخبرهم عمًا يدور بداخلي؟ ما الخطأ الذي فعلته لأولادي حتى تفكر ابنتي في العودة إلى أحضان أسرة غريبة عنها؟ ما الخطأ الذي فعلته يا "باسل" لتشعروا أن الحياة صعبة هنا؟ هل يمكنك أن تخبرني بخطئي؟ لا، لن أسافر معك لأشارك في تلك الحماسة.



أخرجني من تفكيري صوت داخل الطائرة وهو يقول:

- السيدات والسادة، سوف نبدأ الهبوط إلى مطار القاهرة بعد دقائق معدودة.
ربما أكون قد غمُتُ لبعض الوقت، كانت الساعة السابعة مساءً بتوقيت مصر، والشمس في طريقها للغروب. اعتدلت في جلستي ونظرت من النافذة، رأيت من تحتي بيوتاً كثيرةً تشبه علب الأحذية الصغيرة ذات اللون البني. تبدو تلك البيوت كأنها تبعد مئات الكيلومترات. تزداد قوة المصابيح المضاءة داخل

الطائرة في ظل غياب ضوء الشمس وزيادة الظلام، حيث يلوح في الأفق خط أحمر رفيع من النور يبدو وكأنه مرسوم.

لنا عدة ذكريات في تلك المدينة المزدحمة؛ لأنها المكان الذي احتضن العام الأول من رحلة "ليلي" خارج هامبورج، حيث ظلت عامًا كاملًا تُعَلِّم اللغة الألمانية وتتعلم العربية، وكانت ترسل لي عددًا لا حصر له من الصور والإيميلات التي رددت على عدد قليل منها بمجرد أن قرأتها؛ لأنني لم يكن لديّ ما أحكيه لها. أردت مرتين أن أزورها، ولكنني في كل مرة كنت أتراجع.

أحسستُ بضغط الهواء داخل أذني، وبدأت المدينة تقترب أكثر وأكثر، واشتد نور ممر الهبوط. أخرج الطيار العجلات التي أصدرت صوتًا عاليًا، واستمر الوضع هكذا إلى أن استقرت الطائرة على الأرض.



كانت الممرات بين صالات المطار مضاءة بشدة. تعرقلت إحدى عجلات ترولي الحقائب. كان هناك صوت امرأة عربية تقول شيئًا ما عبر مكبر الصوت، ربما تقول إنه يجب علينا الانتباه لشنط اليد. تبدو اللغة العربية غريبة، حيث إنني لم أستمع لمثل هذه الطريقة السلسة من نطق الكلمات من قبل، وكنت سعيدًا عندما فهمت جزءًا من الكلام وهو "حضرات المسافرين"، إلا أنني لم أستطع فهم أكثر من ذلك وكنت محرّجًا.

تشير اللوحة الخضراء المعلقة بجانب لوحة السفر إلى مكان الحمام والمصلى ومنطقة التدخين، فتحركت وفقاً لما هو مكتوب على اللوحة. وجدت أن منطقة التدخين عبارة عن كابينة زجاجية تتسع لستة أشخاص على الأكثر، إلا أن بداخلها يقف أكثر من عشرة أشخاص، ووجدت نفسي داخلها وسط غيوم من الدخان. وأحسست وكأن هؤلاء المدخنين يشعرون بالإحراج لكونهم مدخنين. وقبل أن أستدير مبتعداً عن هذا المكان، ناولني أحدهم علبة سجائره المفتوحة، فشكرته وتناولت سيجارة من علبته واتكأت على جدار الكابينة الزجاجية.

تحدث معي هذا الرجل باللغة العربية بوداً وأشار بيده اليمنى وضحك بصوت عالٍ، حتى لاحظ عدم فهمي لحديثه فقال بالإنجليزية:

- أسف جداً، ظننت أنك مصري فأنت تشبه العرب، ما جنسيتك؟

فأجبته بالإنجليزية أيضاً:

- من ألمانيا.

وأخذت نفساً من السيجارة وشعرت برغبة في الكحة.

فمد لي يده وهو يعرفني بنفسه قائلاً:

- حقاً؟ مرحباً بك في مصر، أنا "سالم حسن"، سعدت بلقائك يا أخي.

فرددت قائلاً:

- "باسل سيد".

فاندهش الرجل وقال بالإنجليزية:

- "باسل سيد"! إذا أنت مصري ولست ألمانيًا، هكذا يظهر من اسمك.

فأجبت بالإنجليزية مبررًا:

- إن أي عربي، إلا أنني أعيش منذ زمن بعيد في ألمانيا.

بدت إجابتي المختصرة بالإنجليزية مبررًا كافيًا كما لو قلتها بالألمانية.

فقال الرجل:

- عظيم، ألا تتحدث العربية مطلقًا؟

فهزنتُ رأسي بلا. لم أكن أرغب في إظهار نقطة ضعفي في التحدث بالعربية.

فقال:

- إنني أعمل في الولايات المتحدة وأتحدث الإنجليزية باستمرار حتى مع أصدقائي.

صمت قليلًا، ثم سألني:

- لماذا جئتُ إلى القاهرة يا "باسل"؟

كان انفتاح هذا الرجل ثقيلاً على قلبي، فقد كنت أتمنى ألا أضطر للحديث مع أحد حتى أصل إلى نهاية رحلتي في جدة، وحتى أقصر الحديث معه قلت له إن رحلتي إلى جدة ستبدأ بعد قليل. فقال الرجل:

- ماذا؟ جدة! لماذا ستذهب هناك؟ هل ستذهب للعمل؟

فكرت قليلاً أن أجب بنعم على سؤاله، لكنني لم تكن لدي الرغبة في تلك اللحظة للكذب، فأجبت:

- إنني مدعو إلى حفل زفاف هناك.

فقال الرجل:

- عظيم! حفل زفاف سعودي، ابن عمي تزوج هناك أيضاً، يا له من أمر عظيم. إلا أن ابن عمي في الرياض، أظن أن جدة أفضل بكثير وأكثر انفتاحاً، أتعلم، أنا لم أذهب إلى هناك مطلقاً، وأنت؟

فهزرت كتفي وقلت:

- هذه هي المرة الأولى.

دهس الرجل سيجارته وفتش داخل حقيبة الكتف الخاصة به، ثم قال لي:

- اسمع، علي أن أغادر لأن أبي ينتظري بالخارج ليأخذني من المطار. ها هو الكارت الخاص بي، اتصل بي إذا احتجت لأي شيء، وإذا جئت إلى القاهرة

مرة أخرى، فسأصحبك في زيارة لرؤيتها، ويمكننا أيضًا تناول الويسكي معًا. سعيد بمقابلتك يا "باسل"، مع السلامة.

ينتظر ركاب آخرون أمام البوابة، حيث يلتف العديد من الرجال في ملابس الحج البيضاء ولديهم لحية سوداء ويرتدون صنادل في أرجلهم. يجلس هؤلاء في مجموعات ومعهم زوجاتهم وأولادهم. تلتف زوجاتهم في رداء أبيض طويل وترتدين الحجاب. يجلس هؤلاء بجانب شنتل للتسوق من السوق الحرة وبعضهم يقلب صفحات كتاب صغير وآخرون يستخدمون تليفوناتهم. في حين يرتدي آخرون الثوب التقليدي وترتدي زوجاتهم العباءة.

أدركت أن ملابس الغريبة تبدو غير مألوفة بالنسبة لهم، فوضعت يدي في جيب البنطلون وجلست بعيدًا قليلًا عن باقي المسافرين. يرتدي الأطفال ملابس ملونة ويمرون من أمامي فينظرون إليّ نظرة ممتلئة بالفضول والحرص في الوقت نفسه.

أخرجت تليفوني الـ"آيفون" من جيب البنطلون وفتحت "لعبة الذاكرة" Memoryspiel. ظهرت على شاشة التليفون صورٌ لطائر وردي اللون وسيارة زرقاء وورود وحيوانات، فضغطت على كل صورتين متشابهتين، ولعبت ثلاث جولات أو أربعًا مستمرة دون أن أرفع نظري. كان الناس من حولي يتحدثون مع بعضهم بعضًا وينادون بعضهم البعض ويتضحكون. مرت أمامي امرأتان صغيرتان في عمر "ليلي" وكانتا تتهقهان، كما أصدرت أحذيتيها ذات الكعب العالي صوتًا وهما تمشيان على الرخام، فرفعت رأسي من التليفون. كانت

الفتاتان ترتديان بنطلوني جينز أسودين ضيقين وبلوزتين حريرتين مزهرتين وحجابًا مُلوَّنًا،
وتحملان على ذراعيهما شنطًا كبيرة تبدو غالية. مرت الفتاتان أمام الحجاج بخطوات واثقة،
والحجاج يتتبعونهم بأنظارهم حتى جلستا في مكان الانتظار.
لعبت جولة جديدة حتى كادت بطارية تليفوني الـ"آيفون" أن تفرغ. نادى أحدهم على
رحلتي فهممتُ أن أغلق تليفوني فوجدت رسالة قادمة إليّ تقول:
"رحلة سعيدة يا ابن عمي، سأكون في انتظارك هناك، أراك قريبًا".



جدة



لم تكن المدينة شبيهة بصورتها في ذاكرتي، تلك الصورة التي أحلم بها أحيانًا - مرة أو مرتين في العام - استقرت في مخيلتي منذ أن غادرت المدينة آخر مرة منذ أكثر من عشرين عامًا.

حينها كان الطريق إلى المطار ما زال بمثابة طريق "رالي" طويل المسافة وسط الصحراء. وكان هذا الطريق الأسفلتي الغريب الذي لا نهاية له يبدو كشریان أزرق يمتد وسط صحراء قاحلة لا نهاية لها، لا نرى منها إلا لوحات إعلانية وبين الحين والآخر بيوت أو أماكن بناء.

أما الآن فلم يعد الطريق مليئًا بالمغامرات. أصبح هناك طريق جديد يتكون من ثماني حارات ومُراقبًا بالقمر الصناعي، فقد حلت المدينة محل الصحراء.

على الرغم من حلول ظلام الليل، فإن الأضواء كانت ساطعة في كل مكان وتنعكس في واجهات المباني الزجاجية والفولاذية. أرى مباني سكنية غالية وسيارات فارهة بجانبنا وعلى الجهة المقابلة من الطريق. كانت "ليلي" قد كتبت لي قبل ذلك أن كل مسجد يعلوه مركزان تجاريان أو ثلاثة، ولم أستطع تخيُّل ذلك حتى رأيته بنفسِي. شعرت بأنني أسير في سوق عملاقة تُشبه السوق السنوية في ألمانيا بأضواء مصابحه الساطعة والملونة والعديد من الماركات التجارية ولافتات الدعاية مثل لوجو مطاعم "برجر كينج" ذي اللونين الأحمر والأزرق، ولوجو متجر "هوجو بوس" ذي اللونين الأبيض والأسود، ولوجو ماركة الموتوسيكلات "هارلي دافيدسون" برتقالي اللون، وأيضًا لوجو مطاعم "تشيليز" ذي اللونين الأخضر والأحمر. كان هناك ازدحام شديد وصخب وأصوات كلاكسات السيارات وأصوات شتائم تنطلق من داخل السيارات ذات النوافذ المفتوحة وأيضًا أصوات أغاني بوب عربية.

تصطفُّ العديد من السيارات في طابور أمام محلات "دانكن دوناتس" و"كنتاكي" كما يتكئ بعض الشباب على نوافذ سياراتهم لاستلام طلباتهم في شنت بلاستيكية كبيرة أو أكواب بلاستيكية، وبعضهم يُجلس أطفاله الصغار على حجره وهم يلعبون في دركسيون السيارة. مرت ثلاث ساعات منذ وصولي

نسيت خلالها شكل شعر النساء، كل ما يظهر هو الحجاب في كل مكان حتى أنهن تشبهن محاربي النينجا.

قال لي "عمر" بالإنجليزية:

- هل تذكرت شيئاً، أم أن كل شيء قد تغير؟

فقلت له:

- يمكنك أن تحدثني بالعربية، فما زلت أتذكرها.

فضحك "عمر" وقال لي:

- لا، إن لغتك سيئة للغاية، وكأنك من برا سأجعلك تتذكرها خلال الأيام القادمة.

استقبلني "عمر" في المطار. كنت قد سألت نفسي قبلها بأيام كيف سيكون لقاؤي به. فقد قضينا معاً الكثير من الوقت في طفولتنا على الرغم من أنه أكبر مني بعشر سنوات. اعتاد أن يأخذني أنا و"ليلي" إلى حمام السباحة الخاص بأسرته، وكثيراً ما لعبنا كرة القدم معاً في الفناء. وها هو قد أصبح يبلغ من العمر واحداً وأربعين عاماً ولديه كرش كبيرة - لو رأته "باربرا" لقاتل عنه إنه مثال لهيئة الرجل السعودي - تزوج ثلاث مرات وطلق في أول مرتين ولديه اثنان من الأبناء في سن المراهقة. كنت قد رأيت صوراً له على "الفيس بوك" في حفلات زفافه ورحلاته وصوراً لأبنائه الذين تبدو عليهم السمنة وينظرون إلى الكاميرا وهم يشيرون بأيديهم بعلامة النصر.

سهل "عمر" عليّ عملية المرور من التفتيش في الجوازات. حضني في المطار وضربني في

جانبي مداعبًا وضحك وقال:

- يا باشا ألا يعطونك أكل في ألمانيا؟! أنت تشبه خلة الأسنان، هيا نذهب سريعًا كي تأكل.

وأخذ جواز السفر من يدي ووضع بين صفحاته عملة ورقية وأخذني عبر الصالة الجديدة

المضيئة وقال:

- لديّ صديق يعمل في الاستقبال. هيا نذهب إليه في مكتبه ليختم لك جواز السفر.

كان الحجاج ذوو الرداء الأبيض المسافرون معي من القاهرة يتجمعون عند الجوازات في

ضوضاء ليأخذوا المصل الواقى، فقال "عمر":

- دائمًا الشيء نفسه، إنهم لا يستطيعون إنهاء إجراءات الدخول إلى الأراضي المقدسة

سريعًا، ليتهم يعلمون ما ينتظرهم هنا.

خُتم جواز سفري في مكتب أحد معارف "عمر" سريعًا ودون أي مضايقات. ساد جوٌّ من

الاحترام بينهما.

قال الرجل:

- آه ألمانيا، "جيرماني"، جيد جدًّا! "مايكل شوماخر"، "بايرن ميونخ"، أهلاً وسهلاً يا أخي!

وعندما استلمت جواز السفر مجددًا، كانت العملة الورقية قد اختفت.

قال "عمر" وهو ينعطف بالسيارة على الكورنيش:

- لماذا لم تأتِ مبكرًا، الأسبوع الماضي مثلًا، ليكون لدينا وقت أطول وتتمكن من رؤية

العائلة كلها مرة أخرى.

فأجبت:

- كان لديّ عمل، ولم أجد رحلة طيران قبل هذا الموعد.

نظرت من النافذة في صمت لأرى كيف أصبحت المباني القديمة. رأيت نافورة الملك فهد

المضيئة التي تقع على الساحل. يمكن رؤيتها أيضًا من الطائرة في أثناء هبوطها، كما رأيتُ

كذلك القطع الفنية المضيئة على الرصيف التي كنا نلعب حولها في طفولتنا. مررنا بالنصب

الخرساني الفني الذي تخرج منه أربع سيارات بارزة والذي أعجبنا بشدة عندما رأيناه أول

مرة. كنتُ أُصدِّق منذ فترة طويلة ما كان يحكيه والدنا عن هذا النصب الخرساني، فكان

يقول:

- قبل سنوات، كانت هناك أعمال في شارع الكورنيش، حيث كانت السيارات تسير بسرعة

جنونية ثم تصطدم بالحوائط الخرسانية، لذا أمر الملك بوضع هذا النصب الخرساني وبه تلك

السيارات، لتنبه باقي السائقين لعدم السير بسرعة جنونية.

ظننتُ "ليلي" وقتها أن الأمر يدور حول قصة أسطورية وقالت:

- لا يمكن أن يحدث ذلك، كما ترى، أن تركن سيارة داخل الأسمت.

اجتاز "عمر" بالسيارة مدخل البيت وسرنا في شارع قصير وقال لي:

- أهلاً وسهلاً بك في البيت.

دخلت على الفور في موجة من الذكريات التي لا يمكنني تحديد أيها من ذكرياتي الشخصية وأيها مما كانت تحكيه لنا "باربرا". إنها نوادر عن موطن قديم. فأنا أتذكر البوابة على الرغم من أنها بالتأكيد ليست البوابة نفسها منذ عشرين عاماً. لم تُفتح البوابة أوتوماتيكياً كما هو منتظر بعد كل تلك الرفاهية، لكنها فُتحت ببطء، الضلفة الأولى ثم الثانية. فتح لنا البوابة رجل كبير السن، محني القامة، ذو بشرة سمراء دكناء وشعر أبيض، ودخلنا البيت بالسيارة "اللكزس".

ضربني "عمر" على كتفي وقال لي:

- يجب أن تتذكر هذا الرجل.

رفع الرجل رأسه وتوجّه إلى السيارة، تكشف ابتسامته العريضة عن أسنان ناصعة البياض مرصوصة بجوار بعضها البعض. فقلت وأنا لا أكادُ أصدّق نفسي.

- "موسى"؟

فهز "عمر" رأسه بنعم وقال مداعباً:

- أبويا أطلق عليه الرصاص ثمانين مرة ولم يمِت وأمر بطرده أيضاً لكنه لم يستجب، إنه يريد أن يموت هنا، وبعدها نرسل إلى زوجاته في السودان آخر قميص ارتداه ليقمن بتقطيعه.

فقال الرجل وهو يمشي متثاقلاً نحو السيارة ليفتح لي الباب:

- يا باشا! يا "باسل"!

نزلت من السيارة المكيفة فشعرت بحرارة الجو في الليل، ثم قال لي الرجل:

- أهلاً أهلاً يا باشا، مبروك، مبروك يا أخو العروسة.

سلمت عليه وهزرتُ يده المجددة واستقبلت أمنياته الطيبة. أردت أن أقول شيئاً ولكن

الكلمات وقفت في حلقي الجاف. وشعرت أنني أتنفس بصعوبة. لم أستطع نطق أي كلمة

عربية، اللهم إلا أنني قلت بصوت منخفض:

- شكرًا، الله يسلمك.

كان "موسى" كبيرًا في السن أيضًا عندما كنا أطفالًا نلعب في هذا الفناء، وما زال صوته

وضحكته العالية لهما النبرة نفسها كما كان من قبل. شعرت فجأة بالتعب الشديد. ظل

"موسى" ممسكًا بيدي فترة حتى تركها ليغلق البوابة خلفنا، وانفتح باب البيت الأمامي.

سرحت بتفكيرى في التغيير الذي حدث بالبيت، حيث الارتفاع الكبير وبناء أدوار أخرى

ووجود مساحات خضراء من حوله والواجهات الحديثة والنوافذ. كما يمتلئ الفناء بالإضاءة

ويبدو أصغر كثيرًا مما أتذكره. إلا أن رائحة النباتات وماء مكيف الهواء لم يتغيرا.

بدا الوقت للحظة ساكنًا وبدأ العالم يدور من حولي، شعرت بهشاشة ذكرياتي، وشعرت

أيضًا بتنميل في أصابعى وبشيء في صدري يريد أن ينفجر.

سمعت صوتًا قادمًا من باب البيت حيث تخرج عمتي "بسمة" - أم "عمر" - مستندة على عكازها وتمشي بخطى سريعة وهي تعدل حجابها بإحدى يديها ومد لي يدها الأخرى وتقول:

- يا حبيبي! يا قلبي! حمد لله على السلامة، الحمد لله إنك وصلت بخير.

مشيت بضع خطوات نحوها ولاحظت وجود دموع في عينيها. لقد أصبحت عجوزًا وتضائل جسمها. هل يتضائل جسم كبار السن مع التقدم في العمر؟ أم أننا نحن الذين ننمو في البعد؟

قبلتني واحتضنتني، وتجمع خلفها آخرون من أفراد العائلة. ضممتها إلى صدري ودخلنا البيت معًا. تذكرت بعض وجوه الحاضرين، تلك الوجوه التي لم أرها منذ زمن بعيد ولكنهم التحموا بي.

أقبل الحاضرون إليّ يسلمون عليّ، يهزون يدي ويطرقون على كتفي. وكان عمي "خالد" - والد "عمر" - يقف وراءهم شاحب الوجه، ضئيل الجسد. عمي "خالد" هو شقيق والدي، يقف مرتديًا فانلة بيضاء ويلف أسفل بطنه قطعة قماش كبيرة عليها رسومات مربعة. تقف إحدى الحاضرين واضعة يدها على كتف عمي "خالد" وترسم ابتسامة رقيقة على شفيتها، وتضع الحجاب على خصلات شعرها اللامعة دون أن تلفه. إنها العروس!

"ليلي"



أتذكر هذه المدينة وبخاصة في وقت المطر الذي يعد حدثاً نادر الحدوث؛ لأن المطر هنا يسقط مرة واحدة في العام على أقصى تقدير. ربما يكون ذلك هو ما جعلني أتذكر ذلك الوقت إلى الآن. كانت المدينة غارقة في المياه؛ لأن نظام الصرف الصحي البدائي لم يتحمل الأمطار التي ظلت تسقط ساعاتٍ، لم نستطع الذهاب إلى المدرسة في تلك الأيام لأن الفناء الداخلي كان ممتلئاً بالمياه وكذلك وصلت المياه إلى الفصول أيضاً. كنت أنا و"ليلي" حينها جالسين عند نافذة حجرتنا ورأينا رجالاً يرتدون جلابيب بيضاء وشباب جلد ينزلون من السيارة ليدفعوها بعد أن عامت في الشارع الممتلئ بالمياه وكأنها سفينة.

ظللنا جالسين ساعاتٍ طويلاً على صناديق بلاستيكية ملونة وننظر للخارج، حيث حولت الأرصفة العالية الشوارع إلى أنهار صغيرة، كما حمل تيار المياه زجاجات بلاستيكية فارغة وأكياس شيبسي وأنواع قمامة أخرى.

كان كل شيء معكراً في أيام المطر، حتى نخل البلح وأشجار المشمش في حديقة البيت المقابل لنا والسيارة "التويوتا" وكذلك وجوه الناس أيضاً. كانت السحب الممتلئة بالأمطار تغطي المدينة بأكملها، كنا مفتونين بها للغاية لدرجة أننا لم نستطع أن نتوقف عن مراقبتها. وفي أثناء سرحاني في تلك الذكريات، ازداد الليل ضجيجاً بزيادة الحاضرين وارتفاع أصواتهم. أعرف وجوه الكثيرين منهم؛ مثل أولاد وبنات أعمامي وأعمامي أنفسهم وزوجاتهم والأطفال الذين كبروا وأصبح لبعضهم أسرته الخاصة.

يجلس حولي ثلاثون شخصاً في الصالون الجديد في البيت الذي أصبح متعدد الطوابق، كان البيت سابقاً يتكون من طابقين أما الآن فأصبح يتكون من سبعة طوابق، ويوجد أسانسير من الدور الأرضي وحتى السابع حيث توجد حجرة عمي وزوجته.

وضعوا أمامي أكواباً من الشاي، وكان التلفزيون الذي يقترب حجمه من حجم شاشة العرض السينمائية يعرض حفلة مسجلة بالأبيض والأسود لـ "أم كلثوم". كان والدنا يسمعها دائماً عبر كاسيت السيارة حتى نجره على أن يُشغل لنا أغاني الأطفال.

تجمع الأطفال وأمهاتهم أمام التلفزيون يلعبون بالـ"آيفون" والآيباد الذي يشغلون عليه "جدو علي عنده حمار" ولعب بلاستيكية على شكل طبلية. وكان الصالون ممتلئاً بصوت حفلة "أم كلثوم" وضحكات عالية وأحاديث ونداء على الخادمت، وعلى الرغم من وجود التكييف، فإن العرق كان يملأ جانب رأسي.

كانت أمامنا أطباق تمر وبنديق ومخبوزات، وأشمُّ رائحة القهوة السعودية بالحبوب غير المحمصية والحبهان. بحثتُ بين وجوه الحاضرين عن "ليلي".

جلست في مقدمة الحجرة بجوار عمي "خالد" خالعة حجابها وقد أعطته لإحدى الفتيات لتلعب به. التفتت الفتاة ضاحكة في حجاب "ليلي" ذي اللون الأزرق الفاتح وأخذت تدور حول "ليلي" وتنتفح حبات كاللؤلؤ من قماش الحجاب وتمدُّ يدها لـ"ليلي" التي كانت تضحك معها وتصفق بيدها وتغني معها أجزاءً من أغاني أطفال عربية. كانت ضحكات الفتاة تتعالى وتنددن معها الإيقاع حتى اشتبكت في الحجاب واختل توازنها ووقعت على ظهرها فوق السجادة.

كانت عمتي "بسمة" تتحدث عني مع "عمر" الذي يجلس أمامي، أما أنا فظللتُ أراقب "ليلي" وهي تتشارك مع عمي "خالد" في اللعب مع الفتاة. كان وجهها رقيقاً وملامحها أكثر أنوثة، ولاحظت من خلال بلوزتها البيضاء أن وزنها قد زاد بضعة كيلوجرامات. كانت أظفارها مقصوفة وعليها مناكير وردية فاتح وتلبس خاتم الخطوبة الذهبي. بدا الأمر وكأنها قد ورثت من تلك العائلة معالم جسدها، فحركاتها تشبه حركات بنات أعمامي وعماتي، ويخرج الضحك من أعماقها بصوت عالٍ. وعلى الرغم من كل تلك السنوات بعيداً عن

اللغة، أستطيع أن أعرف أن لغتها العربية ليست بأفضل حال، فهي هنا غير متعبّة وكأنها أصبحت النسخة الأقوى والأشجع من "ليلي".

لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ أكثر من عام، وتذكرت ذلك اليوم عندما وقفت أمام باي في لطف تحمل في يدها شنطة جلد بُنية اللون وزنها ضعف وزن "ليلي" نفسها، وكانت ترتدي جاكيتًا قد اشتريته لها من محل ملابس مستعملة في لندن وفتتانًا من الكتان.

سألتنني:

- هل هو هنا؟

وقبل أن أجيبها كانت قد دخلت، فقلت لها:

- لم يعد "أليكس" يعيش هنا.

دخلت إلى المطبخ في حركة سريعة منتظمة ورثتها من أمّنا، ثم تركت الشنطة والجاكيت ودخلت الحمام. كانت تتحرك داخل البيت وكأنها بيّتها، وألقت بصندوق الجوابات المغلقة من الكومودينو ولم تلتقطه مجددًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي حكّت لي فيها عن خططها، قمّتُ أنا بغلي الشاي، في حين ضحكت هي وأخرجت ويسكي من دُرَج أدوات المائدة. قالت لي:

- صدقني يا "باسل"، نحن الاثنان في حاجة إليه.



قطع "عمر" تفكيره قائلاً:

- "باسل" يا باشا، باشا! عمك تتحدث إليك.

ثم ضحك "عمر" وقال لي بالإنجليزية:

- ربما علينا أن نحضر لك مترجمًا للأسبوع القادم.

فابتسمت وقلت بالإنجليزية أيضًا:

- ستسير الأمور على ما يرام، إنني متعب ولسْتُ في كامل تركيزي.

قال "عمر" لعمتي بالعربية:

- يا أمي، إن "باسل" متعب.

فوضعت يدها على خدي برفق وقالت:

- يا حبيبي، بالطبع أنت متعب، حمدًا لله على السلامة، يا لها من رحلة طويلة! اشرب

القهوة.

وقبل أن أرفض، ملأت الفنجان المطلي بالذهب، وقالت:

- هل تحدثت مع العروس؟

فأجبتها:

- لا.

فقلت:

- الحمد لله، عقبالك يا حبيبي، إن شاء الله تجد لنفسك عروسًا قريبًا، تحدثي مع أخيك
يا "ليلي" يا حبيبتي.

تنحّت عمتي "بسمة" جانبًا وجلست "ليلي" بجواري. نظرت إليها الفتاة الصغيرة التي
ترندي الحجاب الأزرق كأنه جيبة بإحباط وأخفت وجهها في خَجَلٍ في جِبر عمي "خالد"
عندما اعتذرتُ لها مبتسمًا لأنني أخذتُ منها رفيقتها في اللعب.

ظللنا صامتين للحظة ثم أدارت "ليلي" حلق أذنها وهي مُحرجة وأخذت قطعة من
المخبوزات المصنوعة مع الفستق من الطبق الذي أمامي وكسرتها نصفين وأعطتني نصفًا.
تذكرت في تلك اللحظة أننا لم نحَيِّ بعضنا البعض.

قالت لي وهي تضع قطعة المخبوزات في فمها:

- أما زلتَ تستطيع؟

فهزئتُ كتفي فقط وقلت:

- إنني متعبٌ بشكل كبير، يا له من شيءٍ مثيرٍ للضحك أن نكون هنا مرة أخرى.

أخذتُ قِضْمَةً من نصف القطعة التي أعطتني إياها، على الرغم من أنني لا أحبُّ التمر والقهوة والضوء والحر. لم يكن لديَّ أي إحساس بالوقت، هل جلسنا ساعتين أم أربع ساعات؟ هل ما زلنا قبل منتصف الليل أم بعده؟ لا يمكن معرفة الوقت من وجوه الحاضرين، فالأطفال ما زالوا يلعبون في صخب داخل الحجرة وكذلك الأحاديث لم تنته.

قالت "ليلي" مبتسمة:

- أنا أعرف ما تقصده، لقد كنتُ كذلك أيضًا، سأذهب بك إلى حجرتك.

مسحت بيدها على ظهري كما لم تفعل قط، ونظرنا لبعضنا البعض. كانت عيناها تلمعان، كالذهب وتظهر بعض التجاعيد حول عينيها، إلا أنها تبدو أجمل وأنقى من ذي قبل، ويوجد رمش ساقطٌ على خدها الأيمن.

قلت لها:

- متى ستتم جلسة التعارف الكبيرة، ألا يريد خطيبك أن يأتي؟

حاولتُ في كلامي أن أكون مفهومًا بقدر الإمكان، فقلتُ "خطيبك"؛ لأنني أشعر أن هناك خطأ ما في الكلمة، رغم أنني أعرف اسمه.

فأجابت:

- لقد فضّل عدم البقاء حتى تتمكن النساء من الجلوس هنا وخلع الطرحة، فهو ما زال لا

ينتمي رسمياً إلى العائلة، وهن جميعاً يُردن استقبالك، فالجميع يشناق إليك.

أردت أن أقول لها إن هناك مَنْ تشناق إليها في ألمانيا أيضاً ولكنني أمسكتُ نفسي عن

الكلام.

فأكملت قائلة:

- سيأتي غداً بعد المغرب، حيث نأكل معاً ثم يذهب الجميع إلى الأسفل ليدخنوا الشيشة

ويلعبوا الكوتشينة، حينها يمكنك أن تسأله ما تشاء، فكل ما سيكون في تفكيره هو أنه يريد

الزواج بأختك الصغيرة المجنونة.

قلت لها:

- وكل ما سيكون في تفكير أختي الصغيرة المجنونة هو أنها تريد الزواج بمهندس سعودي

والعيش في آخر العالم.

خرج هذا الكلام من فمي دون قصد وأسفت لذلك، إلا أن "ليلي" لم تلتفت بنظرها عني،

كانت تنظر إليّ نظرة ممتلئة بالإصرار، فأنا أعرف تلك النظرة جيداً. قالت بنبرة باردة وهي

تضع يدها على ذراعي كأنها تريد الاعتذار:

- أنا سعيدة هنا، ألا يكفي ذلك؟

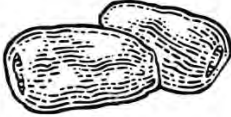
ثم عادت إلى النبرة الرقيقة وقالت:

- أنا متعبَةٌ جدًّا، فالتحضيرات تتطلب الكثير من العمل وقدومك جعل الجميع في اضطراب، وإلى جانب ذلك، عليّ أن أتقبَّل أن أُمِّي ترفض حضور حفل زفائي. والآن سأريك حجرتك، تعالَ معي.

قالت عمّتي "بسمة" عندما رأتنا ننهض من الجلوس على الوسائد السميكَة:

- تصبح على خير يا ولدي.

فابتسمتُ ولوّحت بيدي للجميع، فلوّح الجميع لي، وتمنّوا لي نومًا هانئًا.



"باربرا"



عمَّدها والداها في الكنيسة وسَمَّها "باربرا". وفي مرحلة الحضانة، ذهبت في رحلة استجمام صيفية إلى "بحر الشمال" مع مجموعة تابعة للكنيسة. تبدو "باربرا" في صورتها حينما كانت تقف مع أخيها الأكبر أمام سيارة والدها الـ"فولكس" في "لاجو ماجيوري" بإيطاليا بشعر أشقر مضرر مثبت بعقدة في رأسها المستدير الصغير. كان والدها قد اشترى تلك السيارة المستعملة ذات اللون الأزرق السماوي بعد أن كسب مائة مارك من رهان على مباراة كرة قدم.

نشأت "باربرا" في أسرة يعمل فيها الأب عامل منجم وأمها ربة منزل في "منطقة الرور" بعد الحرب. كانت أمها تطبخ اللفت وبطن الخنزير، وتستخدم فرنًا مكانه كان في غرفة المعيشة في بيتهم القريب من أحد المناجم. كانت دائمًا تسوي على ذلك الفرن وعاءً كبيرًا من الأرز باللبن. كانت الأسرة بسبب قلة المال لا يمكنها عمل أي حلوى إضافية، ولم تكن "باربرا" تطيق أكل الأرز باللبن.

وفي شتاء أحد أعوام الستينيات، وقف أمام باب بيتهم أحد أعمامهم ومعهم جميع أمتعته وثلاثة أبناء في وسط ظلام الليل والضباب قادمين من ألمانيا الشرقية. قالت أم "باربرا" إنهم الآن سيعيشون معهم. تكَّدس ستة أطفال وأربعة بالغين في أربع حجرات صغيرة مدة عام كامل، وكانت السيدات تلمعن الشبابيك يوميًا وهن تريدين مريلة منقوشة بالأزهار أو نبات الكريز أو أي نباتات، وكان البيت يمتلئ برائحة الكرنب والفحم ومسحوق مبيض للغسيل والخبز. وكان الأطفال يذهبون إلى دار البلدية حيث يقومون بعمل واجباتهم المنزلية، والطفل الذي يقصر في واجباته، يُضرب بالخيشة المبللة ضربة أو ضربتين على رجليه العارية.

كانت الجدران مصدعة وبها شقوق رفيعة تمتدُّ من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين، وقد كان يحيي أخو "باربرا" الأكبر لأخته وأبناء عمه عن الثعابين التي تعيش في تلك الشقوق، وعلى امتداد تلك الشقوق، تنمو طحالب خضراء.

فكان أخوها يقول:

- إن الثعابين تتسلل ليلاً إلى الأسرة، وهم يستمعون فقط لكلام الكبار، يمكننا أن نخبرهم أن عليهم الاختفاء ولكن بشرط أن تغسلوا لنا السيارة في الصباح.

أنهت "باربرا" التعليم الابتدائي في السادسة عشرة من عمرها وبدأت تدريباً لتأهيل الممرضات، ولذلك انتقلت "باربرا" من بيت المناجم الصغير الضيق إلى سكن طالبات التمريض في "سانت أنسجار هوسبيتالز". وتعدُّ هذه المرة الأولى التي يكون لـ"باربرا" فيها مكاناً أكبر تعيش فيه على الرغم من وجود فتيات كثيرات معها، كما لا توجد ثعابين في الشقوق ولا خيشة يُضرب بها الأطفال على سيقانهم العارية.

وفي سكن الممرضات، كانت "باربرا" وصديقتها "أنكه" تتسللان في الخفاء إلى المدينة الصغيرة وتجمعان المال لتشتريا أسطوانات للمغنيين "أودو يورجينز" و"نيل دياموند". كانت أسطوانة الأغنية الواحدة بأربعة مارك، وكانت الفتاتان يتبادلانها ليلاً بين الحجرات. قصرت "باربرا" الجيب التي ترتديها في خفية وكانت تدخن السجائر من العلب ذات الخمس سجائر مع الفتيات في طريق عودتهن إلى المنزل. شعرت "باربرا" في ذلك الوقت أن بيت المناجم أصبح مجرد ماضٍ وأن حياتها أصبحت للجيب القصيرة وأسطوانات الأغاني، غير مهتمة بأمر هؤلاء الراهبات صاحبات المزاج السيئ في سكن الطالبات، فحياتها مليئة بما هو أشد ضيقاً من ذلك.

خُطبت "باربرا" في أثناء فترة التدريب لصديق طفولتها الذي كانت تكن له كل تقدير، وكان أبوها يصفه بأنه رجلٌ "يُعتمد عليه"؛ لأنه يوماً ما سيتولى

شركات عائلته، وهو يستطيع أن يشتري لها بيتًا ولديه سيارة بالفعل. الأستران تعرفان بعضهما البعض، وتحفلان معًا برأس السنة. وفي الكنيسة، تتبادل أمهاتهن أحيانًا الحديث عن الجيران وعن الأسعار العالية للجبنة. وحتى "أنكه" صديقة "باربرا" كانت ستتزوج في وقت قريب. يعدُّ النظام شيئًا أساسيًا في حدائق بيوت المناجم، فالكربن ينمو في صفوفٍ منتظمة، والغسيل يُنشر يوم السبت فقط، لم تكن "باربرا" تتحدث في البيت عن الطبيب المساعد الذي تقضي معه ساعات الفراغ في أثناء وردية الليل، لكنها لم تكن تنسى اسمه الغريب قط، كان اسمه "طارق".

وقف خطيبها وصديق طفولتها في يوم عيد ميلاد أمها أمام الباب ممسكًا ببوكيه ورد من نوع زهر "الفاوانيا" وقال:

- أريد أن أُودِّعكم.

لم تفهم أم "باربرا" ما يقصده.

فقال لها:

- ابنتك تزوجت الطبيب العربي زميلها في المستشفى.

ثم سلمها باقة الورد وانصرف.

- أيوضح لنا ذلك شيئاً يا "باسل"؟
- ربما يا "ليلي"، ولكنني لا أعرف ما هو.

يوم الجمعة



فتحت عينيّ ولم أكن أعرف هل نحن في الصباح أم لا، حيث يعمُّ الظلام الحالِك. استيقظت على صوت شيء ما يزن، وبعدها بلحظة، عرفت أن التكييف هو مصدر الصوت. بدأت ملامح الحجرّة تظهر ببطء واستطعت أن أحدد مكان الكومودينو والمرآة، كما يتسلل شعاع شمس من تحت الباب إلى داخل الغرفة. تحسست بيدي مكان التليفون، كانت الساعة الحادية عشرة وسبع دقائق، وكان على شاشة التليفون العديد من الرسائل.

"شبكة موبايلي تحييكَ في المملكة العربية السعودية، سعر المكالمة المحلية هو...".

"تكلفة الرسالتين القصيرتين هو 2,45 يورو فقط".

"هل وصلت؟ أجب فقط بنعم".

ففركتُ عينيَّ ورددتُ على رسالة "يولي" بعبارة موجزة:

"نعم وصلت متأخرًا، إلى اللقاء".

أنا أعلم أن "يولي" تحب أن أكتب لها رسائل أطول، وفي الظروف العادية أكتب لها ليلاً وأنا على سريري. ومن المعتاد أنني أحكي لها عمّا حدث في البار إذا لم أجد شيئاً آخر أحكيه، وعمّا حدث في مكان إقامتي، فتقوم هي بالرد برسائل طويلة يجب عليّ أن أقرأها.

لكنني لا أستطيع أن أكتب لها رسائل طويلة هنا. ستكون الرسائل عن التكييف الذي أيقظني وعن البيت الذي يشبه النسخة المتوحشة من فنادق "جراند أوتيل"، وبتلك الطريقة فقط ستفهم ما أعنيه تمامًا كما تفهم كل شيء في حياتي، أما أنا فلدّي اهتمام أقل بكل ما هو مشترك بيننا. فقررت أن أنهض من السرير حتى لا أفكر فيها أكثر من ذلك.

كانت حجرة نومي - حجرة نوم الضيوف - بها حمام خاص، وضعت فيه عمتي "بسمة" فوطاً بجميع المقاسات، وكذلك أيضاً كلينيكس وشاور جيل وشامبو ومعجون أسنان وكريم شمس وسلاكات أذن ومعجون حلاقة وفرشتي أسنان جديدتين ومغلفتين، وعلى رف المرأة، توجد زجاجة من العطر الرجالي "أولد سبايس"، كما وجدتُ في جيب الجاكييت علبة سجائر "مارلبورو" نصفها فارغ، فتحت النافذة الصغيرة وأغلقت باب الحمام في رفقٍ وأشعلت سيجارة.

تذكرت كلام "ليلي" معي في الليل وهي توصلني إلى غرفتي:

- انتبه لعقب السيارة، الجميع هنا يدخل في الخفاء، أي ليس أمام عمك "خالد" أو عمك "بسمه"، شيء سخيّف أليس كذلك؟ في السابق كنت أرغب في التدخين لأن عمتي "بسمه" كانت تبدو أنيقة وهي تمسك السيارة البيضاء الرفيعة بأصابعها ذات الأظفار الحمراء. أما الآن فأصبح التدخين من عمل الشيطان ومن يكتشفون أنه يُدخّن يُسمّونه خطبة، لقد كبروا في السن.

ثم ضحكت "ليلي" ولعبت بخصلات شعرها.

أنهيتُ استحمامي وارتديت ملابسني وذهبت إلى غرفة المعيشة، ولكنني لم أرش معطر "أولد سبايس".

كانت الغرفة باردة، وضوء النهار يكسو كل شيء. لفت انتباهي بالأمس الشبائيك التي يبلغ ارتفاعها أربعة أمتار داخل شرفة نصف دائرية وجميعها تطل على بحر بلا ساحل، بل تقع عليه بيوت عالية غير مكتملة البناء ومراكز تجارية وفنادق. كان يمكن في الماضي رؤية ممشي الميناء من شرفة الدور الأول عندما كانت مباني المدينة كلها قصيرة، حينها كان البيت بسيطاً وأرضيته من الحجارة وقضبان الشرفة من الخشب ونشّم فيه رائحة البحر المالحة. باب الشرفة عبارة عن ألواح زجاجية يوجد خلفها سلك لمنع تسلل الحشرات الطائرة.

كان باب الشرفة الجديدة مغلقًا، حاولت أن أدير المقبض وكان ذلك أمرًا صعبًا. وجدت الشرفة واسعة ومقسّمة، ورخامها أحمر، وبها تراب، فكل شيء في تلك المدينة مُترَب، ربما لم يدخل أحد قط الشرفة الجديدة.

نادرًا ما يحدث شيء ما بالخارج، اللهم إلا أصوات نداءات قادمة من المدرسة المقابلة للبيت تتسلل من خلال ألواح النافذة، والسيارات القليلة التي تسير في الشوارع الصغيرة وتلف خلال الدوران. تخيلت كيف كبرت المدينة من حول هذا البيت الصغير القديم، كيف بدأت أحوالها في التحسن، وكيف كبرت المباني وارتفعت دورًا فوق الآخر. كان يبدو بالأمس على وجه عمي "خالد" أنه فخور بالبيت الجديد، فهو بالنسبة له إنجاز العمر، حيث يتكون من سبعة طوابق ويجمع كل أولاده بأسرهم كل منهم له شقته في دوره الخاص، وعمتي "بسمه" وعمي "خالد" في الدور الأخير ذي الدرايزين المطلي بالذهب، وهناك أسانسير نحاسي أصفر وقطع أثاث كأنها قادمة من قصر "فرساي" بباريس. خطر ببالي أنني لا أعرف الدور الذي تعيش فيه "ليلي" ومع أي من بنات عمها تُقيم حتى حلول موعد زفافها.

تذكرت السكن الجماعي في حي "سانت باولي" ذي السخان التالف الذي يصفى مياهه خلال عشر دقائق، وكراسي المطبخ، والعفن حول إطار النافذة. وكان "أليكس" لا يطيق ذلك ولا يعرف كيف يمكنه أن يتكيف مع هذا الوضع.

كان الصالون خاليًا ونظيفًا، والسجاجيد تم تنظيفها للتو، والوسائد مرتبة في نظام، ولا يوجد أثر للأطباق والأكواب والأوعية ولا أثر أيضًا لجو الصخب

الذي ساد بالأمس بل يسود هدوء غريب. فردتُ ذراعي للأعلى ووقفت على أطراف أصابع قدمي ومشيت بضع خطوات بمحاذاة حافة السجادة. رفعت ذراعيّ لأعلى وخفضتهما لأسفل عدة مرات ونظرت من حولي في الغرفة التي لم أستطع أن أحدد معالمها بالأمس لامتلائها بالحاضرين.

على الأرفف الموجودة حول التلفزيون الكبير، هناك صور مبرزة للأحفاد جميعهم في زي المدرسة وبعضهم يحمل في يده شهادة، ويضحكون ضحكة متصلة أمام الكاميرا. وعلى اليسار، وجدت صورة لي ولـ"ليلي" التَّقَطت لنا منذ عشر سنوات - على الأرجح - وأنا أرتدي نظارتي السوداء، و"ليلي" عيناها مُحدَّدتان بالكحل، الذي لم تعد تضعه بعد ذلك منذ أن سخر منها "أليكس" وشبهها بالباندا. ظهر في الصورة ونحن جالسون على مائدة مطبخ "باربرا" وأنا أمسك في يدي سكينًا وأقطع التورته ذات الثلاث كريزات السوداوات التي كانت تصنعها جدتنا كل مرة في عيد ميلادنا.

حتى عندما بلغت "ليلي" الخامسة والعشرين وتقدمت جدتي في السن، صنعت لها تورته أيضًا. فكانت جدتي تقول:

- من دون هذه التورته لا نشعر بعيد الميلاد.

لم يظهر من جدتي في الصورة سوى يدها فقط في الجانب الأيمن منها، وهي تمسك منديل الأطباق وتمسح به أصابعها. وكانت "ليلي" تنظر إليّ وتبتسم وأنا أنظر إلى التورته وأبتسم أيضًا. بدت الصورة هزلية وغير ملائمة وسط صور الأطفال بزيهم المدرسي، فأردتُ أن أخفيها.

على المائدة الزجاجية في منتصف الحجر، توجد برطمانات زجاجية مختلفة الأحجام، رفعت غطاء أحدها فاندھشت عندما وجدتها من الكريستال، فأخذت منها ثمرة محشوة بالكراميل.

سمعت صوتاً يقول لي:

- صباح الخير يا "باسل".

جفلت من المفاجأة. وجدتها الخادمة الفلبينية "ماري" التي جاءت إليّ ومدت يدها لي في خجل، فناولتها التمرة كفعل لا إرادي ثم تدراكت الموقف فأرجعتها ثانية، فضحكت هي وقالت:

- لم أقصد أن أفزعك، أنا آسفة، كيف النوم؟ كيف حالك؟ طيب إن شاء الله؟

فاحتضنتها وقلت لها بالإنجليزية:

- كيف حالك يا "ماري"؟ لم أركِ بالأمس.

يكاد يكون هذا الموقف مشابهاً لموقفى مع "موسى"، يعاملونني كأنني لم أكن بعيداً

عنهم، وكأنهم كانوا ينتظرون وصولي حتى كبروا في السن قبل قدومي بوقت قصير.

تعرفنا "ماري" جيّداً منذ صغرنا، فعندما قامت عمتي بزيارتنا في ألمانيا، اصطحبت معها

"ماري". كما كبر الأبناء جميعهم والأحفاد في هذه العائلة بين يديها. دائماً ما ترسل راتبها إلى

الفلبين حيث يوجد أبناؤها.



تذكرت موقفًا قديمًا في أحد أيام الجمعة في الماضي، وكنت وقتها أنا و"علي" ابن عمي في سن السادسة أو السابعة تقريبًا، وكانت العائلة بأكملها تجتمع على الطعام يوم الجمعة عند عمي "خالد"، كان ذلك في البيت القديم وقد انتهيتُ أنا و"علي" من الطعام، ثم ذهب جميع الرجال إلى الصالون في الدور السفلي حيث جهز لهم "موسى" الشيشة فاختلطت رائحة التبغ برائحة الطعام داخل البيت، روائح الفاكهة المجففة والفحم والثوم ورائحة الليمون التي تنبعث من المعطر الذي تمسح به الخاديات مفرش المائدة.

تجمعت النساء في الصالون حيث يشربن الشاي ويلعبن الكوتشينة ويتبادلن الحديث، أما أنا و"علي"، فكانت لدينا مهمة وهي استكشاف البيت، فصعدنا السلم في الخفاء إلى الدور الأخير. كان ذلك مخيفًا؛ لأننا لم نكن نعلم ما سنجد هناك. أحيانًا كانت تنزل "ماري" هذا السلم ومعها ملابس مكوية. صعدنا بضعة سلام فقط، كان الدور الأخير مظلمًا دائمًا، ولم نجد في نهاية السلم أي باب حجرة مفتوح لندخل منه مثل باقي سلام البيت، وإنما يوجد باب خشبي أمامه شنط وكراتين وكومة من الشباشب البلاستيكية، فهمس "علي" قائلاً:

- تعال، سنذهب إلى الأعلى. قال لي "عمر" إن اللُّعب القديمة هناك.

كنت متشككًا لأن "عمر" كان دائمًا ما يخدعنا، ولكن على الرغم من ذلك، أردت أن أكون شجاعًا وألا أفضح نفسي أمام ابن عمي. تسللنا إلى أعلى وكنا ننظر دائمًا إلى الأسفل لتتأكد أن لا أحد يراقبنا، شعرنا بإحساس الشجاعة

والمغامرة عندما ضغطنا على المقبض النحاسي للباب فانفتح قليلاً، فأدخلنا رؤوسنا الصغيرة بحذر خلال الفتحة.

لم نجد مخزناً سرياً للعب الأطفال أو سطح مليء بالفراخ والخرفان كما كنت آمل، وإنما حجرة حقيرة بها سجاجيد بالية، وفي إحدى الزوايا، توجد طاولة الكي، وفي الجدار المقابل، توجد أربعة أسرة منصوبة وإلى جانب كل منهم كراسي خشبية عليها بناطيل وقي شيرتات معلّقة. دخلنا الغرفة وبدأ على "علي" الإحباط، بينما اقتربت أنا من الأسرة وشاهدت الصور المعلقة على الحائط بشريط لاصق، وقف "علي" في منتصف الحجرة مشبكاً يديه. وكانت شمس الظهيرة تتسلل إلى الحجرة من النافذة.

قال "علي":

- هنا تعيش الشغالات فقط يا فتى، كيف لم تفكر من قبل في مكان نومهم.
لم أكن قد دخلت غرفة الشغالات من قبل، لا في منزلنا ولا في أي بيتٍ آخر، وشعرت بشيء من القلق والذنب. كانت الخادمة "روزا" لديها حجرة صغيرة تعيش فيها خلف البيت، وكانت "باربرا" تحذرنا من التسلل إلى تلك الغرفة فتقول:

- يجب ألا تفعلوا ذلك، إنها غرفة "روزا"، وهناك لا يوجد ما تبحثون عنه.

حينها كانت "ماري" تعمل لدى عمتي، عندما وقفْتُ أمام سريرها وكرتسي ملبسها وصورها التي علقتها على الجزء المخصص لها من الحائط، صوراً ملونة وصوراً أبيض وأسود لأطفال فليبيين يضحكون، وبطاقات بريدية

وقصاصات من ورق الجرائد عليها أحرف لم أستطع وقتها تجميعها. توجد في تلك المجموعة من الصور قائمة طعام دسمة عبارة عن ورقة حمراء بها قائمة مأكولات مكتوبة بهذا الخط الغريب ومعها صور لأطباق المكرونة والأرز والسمك وأرقام تبدو كأنها السعر.

دفعني "علي" للخارج وهو يقول:

- تعال، هيا ننزل ثانية، لا يوجد شيء هنا.

نزلنا السلم في هدوء وبخطوات مسرعة، وجلسنا في غرفة المعيشة الصغيرة بجوار باقي أبناء أعمامنا وبناتهم، حيث توجد لعبة "نينتيندو". وعندما دخلت "ماري" الحجرة، نظرتُ في خجل إلى ثقب صغير على ركبة بنطلوني.



قطعت "ماري" تفكيري في ذكرياتي قائلة:

- كيف كانت رحلتك، لعلها كانت بخير إن شاء الله؟ هل نمت جيدًا؟ ما شاء الله، لقد

كبرت، مبروك على العرس، مبروك!

فأجبت بالعربية:

- شكرًا، سعيد برؤيتك، ما شاء الله.

لا أعلم إلى متى سأظل أتحدث عن الله، ولكنني اندهشت من نفسي أنني استخدمت

تلك المجاملات القديمة المعروفة بكل سهولة.

أكملتُ قائلاً:

- كيف الحال؟ كيف حال أبنائك وعائلتك؟ هل ما زلتِ تملكين مطعمًا؟

فاحمرَّ وجهها وابتسمت في فخر وقالت:

- سبعة أحفاد يا "باسل"، ما شاء الله سبعة، والمطعم ما شاء الله له الآن فرعان

ممثلان بالزبائن كل يوم، ويديرهما أبنائي، الحمد لله، إن شاء الله تزورونني جميعًا في

المطعم وسأطبخ لكم.

قلت لها:

- أنتِ أفضل من يطبخ على الإطلاق يا "ماري"، سعيد أنك ما زلتِ هنا.

فهزت رأسها شاكراً وأمسكت يدي بكلتا يديها الصغيرتين، وقالت أخيراً:

- شاي؟ قهوة؟ أم فطور؟

قلت:

- نعم أود ذلك، هل ما زال الجميع نائمين؟ أين هم؟

فضحكت بصوت مرتفع وقالت:

- بابا "خالد" في مكتبه و"ليلى" مع ماما "بسمة" للتجهيز للفرح، سأناديها لك، وسيأتيك

الإفطار حالاً يا "باسل".

الخدمتان الأخريان اللتان نسيت اسمهما لا أشعر بوجودهما، تحملان تراكيبات قابلة

للطي في الأسانسير وتُدخلان صواني في غرفة المعيشة، أشم منها رائحة الخبز كما كان في

السابق والزيتون الذي تخلله "ماري" بنفسها.

جاءت "ليلي" خلف الخادمتين من الأسانسير، وقالت:

- أخيراً استيقظت.

كانت "ليلي" ترتدي بنطلون جينز ضيقاً وبلوزة بيضاء مطرزة بوردة بنفسجية وشعرها

درجة لونه السوداء أصبحت أكثر سواداً ولمعاناً مما أتذكر.

قلت لها:

- استغرقتِ في النوم، وكانت الغرفة مظلمة، والبيت هادئاً ولم يوقظني أحد.

فردت:

- لا عليك، الأمر ليس سيئاً، إنهم مشغولون جداً في التسوق والاتصالات والتخطيط..

وضعت التمرة في فمي أخيراً لأتخلص منها وسألتها:

- مع من تعيشين؟

فردت "ليلي":

- مع "عمر" وزوجته، فليدهما غرفتان خاليتان منذ أن انتقل ابنهما الأكبر للدراسة في نيويورك، لقد انتقلتُ إليهما في العام الماضي، أنا أحبُّ زوجته جدًّا فنحن نفهم بعضنا البعض جيداً، وهناك أمتع بحياتي الخاصة أكثر من هنا.

ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- أما الأشهر الأولى لي ففضيتها في الغرفة نفسها التي نزلت أنت بها.

جلسنا حول المائدة الصغيرة، حيث جلست "ليلي" مربعة والتقطت زيتونة مع قطعة جبن من الطبق الصغير ووضعتهما في فمها. وضحكت عندما رأت نظرتي المشمزة لها وقالت:

- ألا تستطيع أن تأكل بيديك؟

فهزرت رأسي بلا وقلت:

- لن يتغير شيء، خذي أدوات المائدة.

فردت قائلة:

- لقد تعودتُ ذلك هنا ووجدته يجعل الطعام أكثر متعة، عليك أن تجرب ذلك.

وكانت ضحكات "ليلي" واضحة. كنا في "هامبورج" نتناول الإفطار أنا و"ليلي" و"أليكس"،

وكانت عادتنا حينها ألا نتحدث كثيراً في معظم الأحيان، بل نقرأ الجرائد أو ننظر من النافذة

أو نرمي بعضنا البعض بفتافيت الخبز قبل أن ينشغل كل منا بالأكل.

وبعد لحظات قالت "ليلي":

- عمي "خالد" يريدك أن تذهب معه إلى صلاة الجمعة، وغداً بعد الإفطار سنذهب في نزهة.

قلت لها:

- وما الغرض منها؟

قالت:

- حتى نخرج جميعاً قبل الحفلة الكبيرة وحتى ترى أنت شيئاً من المدينة.
فرددت قائلاً:

- لا، أنا أقصد صلاة الجمعة، هل يجب عليّ أن أذهب؟ أنا لا أعرف كيفية الصلاة، كما أنني أعمل في بار.

قالت "ليلي":

- لا يجب عليك أن تصلي، بل افعل كما يفعل الآخرون وهذا ليس صعباً، ما عليك إلا أن تنحني وتركع وتقوم، افعل ذلك مرتين وستكون قد أديت الصلاة. إن هذا الأمر مهم بالنسبة لعمي "خالد" يا "باسل"، إنه يتحمل مسؤوليتك بما أنك هنا وعليه أن يهتم بألا تدخل النار.

عبسْتُ بوجهي وشعرت وكأنني محور دعاية ما.

فأكملت "ليلي":

- لا تعبس، إنه كبير السن ومتدين جدًّا، إنه يعتقد أنه سيفتقدك لأنه لن يراك في الجنة وأنت ابن أخيه ويتحمل مسؤولية أن نتجمع جميعًا في الحياة الآخرة، افعل ذلك من أجله أو من أجلي.

فقلت:

- ألا تذهبون إلى المسجد؟

فأجابت:

- عمتي "بسمة" تعاني هشاشة في القدم، لذلك نصلي هنا ونشاهد الخطبة في التليفزيون. شربنا الشاي وحكت "ليلي" عن الزفاف، عن القاعة التي أجروها والورد والأكل، وكانت تدرش في خجل أحيانًا. وعندما سألتها عن أعمال البيت، كيف يمكنها تقشير تفاحة وتقطيعها، شعرت أنني أمام "باربرا" بصفاتها وحركاتها وأقوالها. هذا ما أوضحه لي الحديث عن تقشير التفاحة، حيث تجنَّب الإجابة والهروب من الأسئلة المهمة. لم تتخيل "ليلي" قط أنها ستخفي مشاعرها. كل ما فعلته أنها جلست أمامي وقشرت تفاحة وبدأت في الانصراف. كان من الأفضل أن آخذ منها سكينه التقشير وأغلق يدها وأسألها عما كنا نتحدث فيه، ولكن قبل أن أبدأ قالت لي:

- تعال، عليك أن تستعد، فعمي "خالد" سيدعوك في أي لحظة.

أغنية المساء



أعطت "ليلي" مقاساتي للترزي، وكانت تقديراتها للمقاسات جيدة، وبغض النظر عن بعض الطول البسيط في الكُم، فقد كان مناسبًا تمامًا. كانت الجلالية البيضاء الناعمة مريحة والأزرار تُغلق في سلاسة، فشعرت كأنني لم أرتدِ نوعًا آخر من الثياب في حياتي. الفانلة والبنطلون الأبيض كانا مكويين للتو أيضًا بكل إتقان، والبنطلون به ثنيات. رفعت ساعد الأيمن وشممت الكُم فوجدت به رائحة كلوركس ورائحة المكواة. أنزلت ذراعي ورفعت ذراعي الأخرى لأتحسس به شعري الممشط. كنت أبدو في المرأة مختلفًا عن ذلك الرجل الذي يعمل في بار لشرب الخمر.

فكرت إن كان ما زال لديّ وقت لأحلق ذقني، وبينما أفكر، طرق أحدهم الباب على

استحياء. أدخلت "ماري" رأسها في ارتباك وقالت:

- ينبغي أن أعطيك ذلك.

وأعطتني شبشبًا جلدًا فتذكرت الكلمة العربية - شبشب - وتذكرت حركته وصوته،

وتحسست الجلد الناعم. كان والدي يرتدي شبشب غالية مزخرفة يصنعها له صانع أحذية

في المدينة القديمة، حيث كان يصطحبني معه فأعجبني التطريز الرائع ورائحة الورنيش

والجلد. وفي أحد الأيام - كنت في سن السابعة تقريبًا - أخذوا مقاساتي في الأحذية، حيث أمر

الصانع مساعده أن يضع ورقة تحت قدمي ويدور عليها بقلم حولها، ثم أرسل صبيه المصري

- الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة تقريبًا - إلى الجزء الخلفي من الورشة، وقدم الرجل لوالدي

شايًا ولي بيبي فاترة. جلسنا على كرسي قديم وعرض لنا الرجل تشكيلات مختلفة من

الأحذية، منها ذات القطع الصوفية وبعض الخيوط الذهبية والفضية والسوداء.

قال الرجل لي حين ارتديته:

- رائع، ما شاء الله، إنه جميل عليك يا دكتور مثل أبيك.



قلت لها:

- شكرًا يا "ماري".

أدخلتُ قدمي في الشبشب وكان يناسبني تمامًا.



كان المسجد يطل على كورنيش البحر الأحمر مباشرةً وخلفه البانوراما، والمكان الواسع ذو الثماني زوايا أمام المبنى ممتلئًا بالسيارات الفارهة، والسائقون الباكستانيون يجلسون على الرصيف أو يمسكون بسجاجيد الصلاة في أيديهم في الظل منتظرين بداية الصلاة. قاد "عمر" السيارة بي وبعمي "خالد"؛ لأن السائق كان في إجازة في فترة ما قبل الظهر، وحيًا "عمر" بعض الرجال الذين هم في طريقهم إلى المسجد أيضًا. كما أمسك عمي "خالد" عصاه بإحدى يديه وأدخل ذراعه في ثنية ذراعي، كنا قبل الثانية عشرة بقليل والجو شديد الحرارة، وأشعة الشمس يعكسها الرخام الفاتح في المسجد فوجدت صعوبة في أن أتعرف إلى المكان. أقبل بعض الشباب في احترام باتجاه عمي لمساعدته، ومدوا إليه أيديهم وتمنوا له يومًا سعيدًا.

كان المسجد من الداخل مكونًا من ثمانية أضلاع تمامًا كالفناء الخارجي ومفروشًا بسجاد أحمر منقوش، والشبابيك العالية يتسلل منها ضوء الشمس. يتحرك الرجال في بطء ويحيون بعضهم بعضًا ويجلسون على الأرض وهم يقولون:

- صباح الخير، كيف الصحة؟

سرنا خلف "عمر" إلى صَفِّ من الكراسي على اليسار حيث أجلس هو أباه وأشار لي

بالجلوس على الأرض بجواره، وقال لي:

- كبار السن لا يستطيعون الانحناء، لذلك أباح لهم الله الجلوس.

ثم أخرج تليفونه الـ"بلاك بيري" من جيب الجلابية العلوي وبدأ يكتب عليه شيئاً.

امتلاً المسجد بالمصلين، وكانت الضحكة المكتومة للصغار هادئة. أغلقت عيني للحظة

فشعرت بالمكان من حولي هادئاً وتحولت الأصوات في الخلفية إلى صوت هواء رقيق، وضعت

يديّ على ركبتيّ اللتين شعرت فيهما بتنميل كما لم تعد عروقي رقبتني تنبض كما كان في أثناء

الطريق، وتمنيت لو أنني يمكنني النوم قليلاً. تذكرت كلام "ليلي" حين قالت:

- افعل كما يفعل الآخرون، وسوف تتذكر كل شيء - الحركات وتتابعها وحتى الآيات -

أعتقد أن الصلاة لا تُنسى، مثلها مثل السباحة وركوب الدراجات.

ثم تنفست بعمق.. شهيق. زفير.. شعرت بالراحة.

بدأ المؤذن يرفع الأذان قائلاً: "الله أكبر، الله أكبر" فامتلاً المسجد بالحركة ووقف

الرجال من مجلسهم واصطفوا، وهزني "عمر" بقدمه برفق ليفهمني أنني يجب عليّ الوقوف

أيضاً.

أكمل المؤذن الأذان قائلاً: "حي على الصلاة، حي على الفلاح... لا إله إلا

الله..". نادى المؤذن مرتين إلى الصلاة عبر مكبرات الصوت بنغمة طويلة فيها

مد. تذكرت "ليلي" في صغرها عندما كانت تشاهد الخطباء في التلفزيون وهم يتلون سوراً من القرآن. كانت معجبة بهم جداً وبخاصة أحدهم الذي كان أعمى ويرتدي نظارة شمسية سوداء ولديه صوت ناعم وعذب. وكانت تجلس طويلاً أمام التلفزيون تشاهد وتستمع.

نظر كل الرجال من حولي بما فيهم "عمر" إلى الأرض ووضعوا أيديهم على بطونهم وتمتموا ببعض الكلام وبعضهم كان يعد حبات السبحة، ثم بدأت الحركة حيث ركعوا ثم اعتدلوا ثم سجدوا ثم وقفوا مجدداً. كانوا يقومون بحركات متناسقة تشبه الرقص وكنت أقلدهم، فأركع وأسجد وأقوم وهكذا عدة مرات، لكنني نسيت ما ينبغي أن يُقال في الصلاة، أعتقد أنني كنت أعرف ذلك في الماضي لأننا تعلمناه في المدرسة كما كان والدي يردده معنا وكنا نفتخر أننا استطعنا تلاوته دون أخطاء. لا أتذكر إن كان أبي استمر في الصلاة بعد أن انتقلنا إلى ألمانيا أم لا، وسألت نفسي متى بدأ ينقطع عن ذلك الروتين؟

ركزت على أوامر الإمام حيث كان المصلون يتبعون حركاته بعد أن يقول: "الله أكبر"، وكنت أعرف أن الجزء الأخير من الصلاة نختمه جالسين، فأغلقت فيه عيني كما يفعل بعض الرجال، وحركت شفتي، لكنني لا أعرف ما يجب أن يُقال، ووجدت نفسي أهمس ببيت شعر الطفولة الذي نحفظه كلنا للشاعر الشهير "ماتياس كلاوديوس":

"ظهر القمر وتلألأ النجم الذهبي في السماء الصافية".

هذا أول شيء جاء في مخيلتي.



حين كنتُ في الصفِّ الدراسي السابع، وَجَبَ عليَّ حفظ هذا البيت الشعري. ما زلت أتذكر جدتي وهي تكوي الملابس في المطبخ و"ليلي" تجلس على الطاولة وتقوم بعمل واجباتها. كنتُ ممسكًا بكتاب القراءة أمامي أقرأ فيه، وكانت جدتي تستطيع ترديد سبعة أبيات شعرية كاملة دون أخطاء وهي تكوي بنطلوني وفتتان "ليلي" وبلوزة "باربرا".



أكملتُ ترديد البيت قائلاً:

"ما أجمل هدوء العالم وهو يلتف في ظلام الفجر في لطف".

أنهى الإمام الصلاة، وشعرت بألم فراق جدتي على الرغم من أنها ماتت منذ سنين أو ربما بسبب فكرة "ليلي" العنيدة بأن آتي إلى هنا لأدفع ثمن فراقها هي أيضاً، وأكملت الأبيات قائلاً:

"ننسج خيوطاً في الهواء ونبحث عن الفنون ونقترب من هدفنا".

ثم توقفت عن إكمال القصيدة وقلت لنفسي: "هكذا أنتِ يا ليلي".

تذكرت قولها لي في "هامبورج":

- أحيانًا يكون على الإنسان أن ينفذ ماذا يريد.

فقلت لها:

- هذا أمر مؤكد.

لكنني حينها لم أكن أتصور أنها تعني ما نحن فيه الآن. وقف الرجال من حولي في ببطء وظل بعضهم جالسًا يتمتم ببعض الأدعية في صمت، وقاموا بتشغيل تليفوناتهم مرة أخرى وُسْمِع صوتها.

قال لي عمر:

- "باسل" يا أخي، لقد كنت شارداً الذهن تمامًا، هل نمت أم كنت تصلي فعلاً؟

قلت له وأنا أحاول أن أبتسم:

- هذا وذاك.

فأحاطني "عمر" بذراعه وضمّني إليه ونحن نسير، وأكمل قائلاً:

- يا باشا نحن سعداء برؤيتك هنا، إننا نفتقدك ونفتقد والدتك، من المؤسف أن الخالة "فاطمة" لم تأتِ فلديكم قوانين مضحكة في ألمانيا، حيث قالت "ليلي" إن عليها العمل هناك دون الحصول على إجازة لحضور زفاف ابنتها.

لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله فهزرت كتفي، فأنا و"ليلي" نعلم أن "باربرا" هي التي فضّلت العمل، ولكن كيف يمكن أن أشرح لـ"عمر" ذلك.

شعرنا بالحر الشديد أمام المسجد، وكان عمي "خالد" يمشي خلفنا ويتحدث مع رجلين، وعندما مر أمامنا أحد الشَّحاذين ومدَّ يده أعطاه عمي "خالد" عملة ورقية ومسح على كتفه. أكمل "عمر" قائلاً:

- لا عليك يا باشا، لا عليك، سنجد حلًّا، سيكون أبوك فخورًا بكمما، والآن سنذهب بعمك إلى البيت ثم نأكل آيس كريم على الكورنيش، اتفقنا؟



وبعد أن أوصلنا عمي للبيت ليحصل على قيلولته ذهبنا عبر الشارع الخالي وكنت أنظر من النافذة شارد الذهن إلى المنطقة السكنية التي تبدو مهجورة، وعندما وقف "عمر" إلى جانب الطريق، أردت أن أزيد برودة التكييف.

قال "عمر" لي:

- هل تتذكر هذا؟

كنا في منتصف منطقة سكنية وأمامنا سور قديم مرتفع تعلوه أسلاك شائكة. فتح "عمر" باب السيارة وأشار لي بالنزول. كان الجو خارج السيارة شديد الحرارة فانتفضت عندما لمست قدمي الأسفلت وهما داخل الشبشب، نظرت من حولي ونظرت لابن عمي متحيرًا فأنا لا أعلم أين نحن.

سرنا بجانب السور بعض الخطوات فشعرت بالعرق ينساب على قفائي. أشار "عمر" إلى

أحد البيوت في منطقة محاطة بسور وهو يقول:

- هنا.

للهولة الأولى، شعرت أنها جميعاً تشبه بعضها بعضاً، بيوت قديمة كالصناديق وبها عدد

الشبابيك نفسه، ثم شعرت فجأة أن قلبي يدق وهمست قائلاً:

- البيت القديم.

فأخرج "عمر" علبة سجائر من الجيب العلوي للجلاية وهو يقول متحمساً:

- كنت أعرف أنك ستتذكره، هيا التقط بعض الصور لتهيأ لأمك ولكن دون أن تلفت

الأنظار فالمكان عليه حراسة كما ترى.

يوجد على السطح من ناحية اليسار في الصف الأخير من الكومباوند بناء خشبي به

شبابيك صغيرة مزخرفة. ورأيت من بُعد أن الخشب قد تآكل وأن لونه الأحمر الغامق قد

تقشر مع الزمن. كان أبي هو من بنى هذا المبنى لأنه أراد لنفسه مكاناً يستقبل فيه أصحابه

ليدخلوا الشيشة ويلعبوا الكوتشينة، وكان يسمح لي أحياناً بالجلوس لمشاهدتهم. كان أصحابه

يعلمونني خُدع الكوتشينة، وكان هو يحكي لهم عن درجاتي في المدرسة، فيقولون له وهم

يطرقون على كتفي:

- إن شاء الله يسير على خطاك يا دكتور "طارق".

وعندما كانت تأتي "ليلي"، كانوا يهتمون بها أكثر مني وكانوا يُعجبون برشاققتها وخصلات شعرها الأسود التي يلعبون فيها بأصابعهم، ولم يكن يسبب لي ذلك أي إزعاج. فتحت الكاميرا بتليفوني الـ"آيفون" وقربت الصورة والتقطت ثلاث صور مهزوزة أو أربعمًا، وكنت أشعر كأنني أشم رائحة الشيشة في حجرة السطح وأجلس على الوسائد البنيّة القبيحة. كانت سيارة "عمر" تحت ظل نخلة بلح فاتكأنا على باب الكرسي المجاور للسائق وأشعلنا سيجارتين وقلت لـ"عمر":

- شكرًا.

لم أتذكر شيئًا آخر من اللغة العربية لأقوله، ثم سكتنا لحظات وقال لي بعدها:

- هل حكّت لك "ليلي" أنني أتيت بها إلى هنا أيضًا؟

فنظرت إليه وهزرت رأسي بلا.

فقال لي:

- بعد أن حُطبت، سألتني إذا كان البيت القديم ما زال قائمًا أم لا فأتيت بها إلى هنا، وللأسف لا يمكن لأحد دخول الكومباوند ما دام لا يعرف أحدًا بالداخل، فوقفنا هنا كما نحن الآن، وانفجرت "ليلي" في البكاء ولم أكن أعرف ماذا أفعل فتركته تبكي. اعتقدتُ أنها تذكرت والدكما وتذكرت الماضي كله.

ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته "المارلبورو" ونظر إليّ وأكمل قائلاً:

- ولكن لم يكن ذلك هو السبب، لقد قالت إنها تشتاق إليكم كثيرًا، أنت وأصدقائكم ومدينتكم، وسألتنني "من أين أعرف هل حققت ذاتي هنا أم لا؟". وكنت أتفهم ذلك، أتعلم؟ كنت سأعيش في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أنهيتُ دراستي، ولكن لم أستطع فراق هذا البلد.

لم تحكِ لي "ليلى" قط أنها كانت لديها شكوك في أنها ستفتقد ألمانيا، وأردت أن أسأل "عمر" ماذا قالت بعد ذلك وأردت أن أسأله هل فُكِّرت في الأمر بعد ذلك أم لا وأردت أن أخبره أننا اشتقنا إليها. ولكنني خفت أن يعتبر ذلك تجريحًا فضلت السكوت.
قال "عمر":

- لكنها تمالكت نفسها مجددًا، فأختك قوية جدًّا وتعرف ماذا تريد، أنت تعرفها أكثر منا جميعًا بالتأكيد. أريد أن أخبرك فقط أنها تشتاق إليكم حتى وإن لم يبدُ ذلك عليها.
ثم فتح باب السيارة وصعد بداخلها وقال لي:
- يالاً اركب، فعمتك تنتظرنا على الغداء.



الانتقال



لم يكن لدينا تصوّر عمّا هو قادم.

لم نكن نعرف أننا لن نعود مجدداً إلى موطننا في جدة، حيث اشترى والدانا بيتاً

جديداً وجهازاً لنا في ألمانيا لنعيش فيه وأن ذهابنا هناك ليس لإجازة الصيف فقط مثل كل

عام.

كانت الحياة في صغرنا تسير في كل عام على وتيرة واحدة تبدأ من شهر يوليو عندما

ينتهي آخر يوم دراسي فنفرح أنا و"ليلي"، ثم حفل تسليم الشهادات الذي يُقام بفناء المدرسة

وتُنَادَى أسماؤنا على المنصة.

كنا نعرف أننا من الطلبة الأوائل في المدرسة، وهذا يعني أننا سنذهب أمام أعين جميع زملائنا إلى مدير المدرسة على المسرح في مشهد عظيم نعتبره - كوننا أطفالاً - عظيمًا، ولذلك يجب الاستعداد له جيدًا. كانت "ليلى" ملتحقة بمدرسة البنات وأنا بمدرسة البنين المجاورة لها، إلا أن الاحتفالات في المدرستين كانت تتم بأسلوب واحد.

كانت "ليلى" تتسلل إلى الفناء الخارجي للبيت بعد العشاء ممسكةً بحذائها الجلدي الأبيض اللامع وتطرق على باب "روزا" لتطلب منها لوازم تلميع الحذاء، ثم تجلس على السلم الخارجي وتُلَمِّع الحذاء بقطعة قماش مُقَطَّعة، في حين أُطعمُ أنا قطننا التي اتخذت لها من البيت مكانًا للعب.

قالت "ليلى" في هدوء وهي تبتسم:

- "ريهام" قالت لي إنها كادت أن تتزحلق على المسرح في العام الماضي، يجب عليّ أن أنتبه لذلك.

وفي مساء آخر يوم دراسي من كل عام، بعد أن نُنهى كل شيء ونشعر بالتعب ونُعلِّق شهادتنا، تبدأ "باربرا" في التحضير للسفر. فهي تجيد ربط الأمتعة، وفي آخر يوم دراسي، ترندي القميص ذا الدوائر البيضاء والزرقاء وتربط شعرها الأشقر القصير برباط من الخلف وتفتح شنطتي سفر أو ثلاثًا على السرير الكبير لوضع الأشياء بداخلها، وكانت تتحرك في خفة كالرياح فلا نعلم أهي تمشي أم تجري أم تتحرك بحيث لا يمكن الإمساك بها وإنما فقط نشعر بحركتها.

جلستُ أنا و"ليلي" على الأرض أمام حجرة نوم والدينا، وكانت "ليلي" تحاول أن تُطَبِّق الكثير من فساتين الدُمل وتضعها في شنطة الرحلات القصيرة وهي ما زالت ترتدي زي المدرسة، لدرجة أن البنطلون الأخضر الخشن قد ترك أثرًا في ساقها، كما كانت هناك بقعة مانجو على ياقة البلوزة البيضاء. وكعادتنا في آخر يوم دراسي من كل عام ونحن في طريق عودتنا إلى البيت، نقف على الكورنيش ونشترى الأيس كريم، وكان آخر يوم دراسي هو اليوم الوحيد الذي يأخذنا أبي بنفسه من المدرسة.

ما زلتُ أتذكرُ أننا كنا نأكل الأيس كريم في السيارة وليس خارجها لأنه غير مسموح لنا بذلك، فكنا نجلس في حذر داخل سيارتنا "المرسيدس" ذات الكراسي الجلد ونحرص على ألا يتقاطر منا الأيس كريم، فيضحك أبي ويخبرنا ألا نقلق من شيء، فكل شيء مسموح لنا اليوم. كنا نقضي آخر ليلة قبل السفر - أول يوم إجازة رسمياً - في بيت عمي "خالد"، حيث يلعب الرجال الكوتشينة ويدخنون الشيشة في الفناء. كما تطبخ عمتي "بسمة" الأرز المعمر مع الفراخ بالحبهان وتصنع لنا نحن الأطفال السمبوسك والأيس كريم للتحلية بعد الأكل، وبعدها يسمحون لنا بلعب الكرة في الفناء.

كان أبي يكسب في الكوتشينة بفضل قدرة "ليلي" على التجسس وهي تضحك عندما يشتمها عمي "خالد" بصوت عالٍ مداعبًا.

لا أتذكر طريق العودة إلى البيت، ولكنني متأكد أنه يختلف عن المعتاد في باقي الأيام. كانت "ليلي" تنام في حجر أمي، أما أنا فأجلس بجوار أبي وهو

يقود السيارة وأعلّق على السيارات الأمريكية وأشاهد البحر ونافورة الملك فهد التي تُصدر ألوانًا مختلفةً في الدقيقة الواحدة فكنا نقوم بعدها.

كنتُ أفكر دومًا إن كان هناك أيُّ شيءٍ مميزٍ في اليوم الذي حصلنا فيه على آخر شهادة وقضينا فيه آخر ساعات في بيتنا القديم، وأحاول أن أتذكر أي نظرة مميزة نظرتها أمي أو تصرّف مختلف من أقاربنا أو أنهم نظروا إلينا بشكل مختلف، إلا أن ما يمكنني تأكيده أن كل شيء كان طبيعيًّا كالمعتاد. اعتقدنا أننا فقط سنذهب في إجازة صيفية طويلة إلى جدّينا وأقارب أمي في ألمانيا حيث يقود أبي سيارة جدي الحمراء القديمة في طريق الجبال - فهو يحب ذلك - واضعًا فواحة برائحة الليمون في التابلوه ممتزجة برائحة التبغ الموجودة في فرش السيارة والتي لم أكن أحبها.

دائمًا ما كنت متأكدًا من أننا لم نكن ندري في ذلك اليوم بالوضع الذي يتغير حولنا. قضينا الصيف في ألمانيا كالمعتاد في شقة يملكها والدانا وتفصلها شوارع قليلة عن جدينا. كان الفرق بين الشقة وبين البيت القديم الكبير يزداد وضوحًا كل عام، فلم نعد في حاجة إلى أن نتقاسم غرف الأطفال، لكنه شيء جميل لو ظللنا هكذا لأسابيع قليلة فقط. اصطحبنا جدانا إلى حديقة الحيوانات وإلى حمام السباحة وإلى الحديقة العامة ثم ذهبنا في نزهة لمدة أسبوعين إلى "الجوي". وكنا في أثناء الزحام الشديد الذي لا نهاية له، نستمتع إلى المسلسل الإذاعي "بنيامين بلومشن"، ثم انكسر ذراع جدتي وهي في حمام السباحة الخاص بالبنسيون فجبّسه أبي لها.

قبل نهاية الصيف بقليل، عندما بدأت حرارة الجو تنخفض، بدأت تحدث أشياء جديدة بالملاحظة، فقد اشترت لنا أمي جواكت ثقيلة وأحذية شتوية، ولم تهتم "ليلي" بذلك في حين كنت أنا متشككًا في الأمر؛ لأنه نادرًا ما تقل درجة الحرارة في جدة في فترة الكريسما عن خمس وعشرين درجة.

إلى أن حان وقت الحديث مع السيدة "كورنر"، وهي سيدة باردة المشاعر لديها شعر أحمر ممشط للخلف وترتدي نظارة رفيعة على حافة أنفها، عندما كنتُ في التاسعة من عمري، لم أعرف لماذا لا ترتدي السيدات في ألمانيا ملابس منمقة، بنطلون بدلة مثلاً إذا لزم الأمر، ولكنهم بدلاً من ذلك يرتدون الجينز والبلوفر أو ما هو أسوأ مثل "سويت شيرت" عليه صورة دب أو كلب. كما أنه ليست هناك من ترتدي حذاء بكعب عالٍ وهذا الأمر شغل "ليلي"، فما زلتُ أتذكر أنها سألت "باربرا" ذات مرة قائلة:

- ماما، أين أحذيتكِ الأنيقة؟

فضحكت أمي وكان رأيها أن أحذية الكعب العالي غير عملية، وقالت:

- ستعرفين ذلك عندما تكبرين يا حبيبتي.

كانت أمي تتصرف كالألمانيات عندما نكون في إجازة في ألمانيا.

جلس والدانا معي أنا و"ليلي" في غرفة مدير مدرسة "هاينريش هاينه" بالدور الأول. تلك المدرسة التي نعرف جيداً واجهتها المبنية من الطوب لأنها تقع في مقابل بيت خالتي، وكنا نأتي إلى هنا مع أولادها بعد الظهر لتركب

العجل في فناء المدرسة، وكان أحد أبناء الجيران يغيظنا ويدفعنا لعمل اختبار شجاعة ألا وهو أن نقرب بقدر المستطاع من أحد كلاب الحراسة في بيت خلف المدرسة، وغالبًا ما كان ينتهي الأمر بالدموع حيث يفزع أحدنا من الكلب أو يقع بركبتيه على الأرض الصلبة ويُصاب.

طرحت علينا السيدة "كورنر" أسئلة كثيرة تتعلق بالحساب والقراءة وعدد الحروف

الهجائية التي تعرفها "ليلي"، فأجابتها "ليلي" وكأنها تهينها:

- أتقصدين بالعربية أم الألمانية أم الإنجليزية؟

كما سألتنا: هل سنأتي بالعجلة أم بالباص؟ وأعطت أمني قائمة بأشياء يجب إحضارها، مثل

علبة ألوان مائية لـ "ليلي" وكراسة وكتب لي، وتحدثت مع أبي بصوت عالٍ وكأنه أصم.

ما زلتُ أتذكر أن "ليلي" أمسكت بـ "السويت شيرت" الذي أردتديه وقالت لي:

- هل ستكون هذه مدرستنا يا "باسل"؟

ونظرت إليّ وكأنها تريد أن تقول: "لكنني أريد أن أتسلم شهادة التكريم في العام المقبل

وأن أسلم على مديرة المدرسة".

ليت ذلك كان مجرد خطأ أو سوء فهم أو على الأقل مرحلة انتقالية، فليس هناك سبب

يمنعنا من العودة إلى بيتنا القديم. كما أن أشياءنا ما زالت هناك.

ودّعنا السيدة "كورنر"، وكانت "ليلي" ممسكة بيد أبي وتنتظر إلى المديرة وتقول:

- هل ستكون هذه مدرستنا يا أمي؟

فسكتت "باربرا" لحظةً ونظرت لأبي الذي أوماً برأسه.

قالت "باربرا":

- يا حبيبتي إن أباك يجب أن يذهب إلى المدرسة بدءاً من الأسبوع القادم، أليس جميلاً

أن تكوني في المدرسة نفسها مع "باسل" وأن تركبا العجلة في الصباح إلى المدرسة.

بالطبع لم يعد أبي يذهب إلى المدرسة، وإنما قدّم في الجامعة ليحصل على تدريب

متخصص في الطب، هذا ما أوضحته لي أمي في وقت لاحق.

ذهبنا إلى مدرسة "هاينريش هاينه" الابتدائية، حيث التحقت "ليلي" بالصف الثاني

والتحقّت أنا بالصف الرابع رغم أنني كان من المفترض أن ألتحق بالصف الخامس، إلا

أن المدرسة في ألمانيا لم تعترف بشهادتي فأعدتُ آخر سنة في الابتدائية، حيث كانت

السيدة "كورنر" قد أخبرتني أنني أكتب الألمانية بشكل سيئ وأن مستواي لا يؤهلني

للف الخامس ورشحت لي الالتحاق بالمدرسة التجارية. ما زلت أتذكر كيف كان والدي

أسفًا لسماع ذلك، إلا أن "باربرا" هدّأته وأخبرته أن الأمر ليس سيئًا فما زال لديّ وقت

لأعيد الصف الرابع وبعدها يكون كل شيء طبيعيًا. ولم أستوعب ذلك كله، ففي بلدنا

القديم، لا يوجد هذا النظام التعليمي، كما أنني أريد أن أكمل تعليمي حتى

شهادة الثانوية مع صديق الحضانة، أتذكر أن هناك ما أخرجني في ذلك اليوم واعتبرت أن "هاينريش هاينه" إنما هو شخص يكرهني.

قدمتني المعلمة في أول يوم دراسي أمام الفصل قائلةً:

- هذا "باسل" جاء من بلد بعيد جداً وسيكون زميلكم في الفصل، ساعده في كل شيء.
لم يبدُ على الأطفال أنهم اهتموا بأنني جئتُ من بلد بعيد. أتذكر أنني عقدتُ ذراعي
وكأنني أحمي نفسي من نظراتهم اللامبالية.

قال لي أحد الصبيان الجالسين في الصف الأول وهو يناولني حجرًا:

- هل تريد طوبة يا "باسل"؟

أفزعني حشجة صوته العالي الذي يبدو كأنه يدخن كما أفزعني ما عرضه عليّ، فيبدو لي
أن هذه طريقة غريبة في إلقاء التحية.

فرددت وأنا لا أعرف لماذا قلت ذلك قائلاً:

- لا، لديّ الكثير.

لم أكن قد جمعت الطوب منذ فترة طويلة منذ أن كنت أتعارك مع "ليلي" فتجمع هي
الحصى من الشاطئ وقطع الرخام من بيت عمي. وهكذا رفضت أول صداقة لي في هذا
الفصل الغريب مع هؤلاء الأطفال الأغراب.

كانت المرحلة الانتقالية سلسة وصامتة، ظللنا نذهب إلى المدرسة الجديدة في ألمانيا دون أن يتحدث أحد عن العودة إلى جدة. فكل يوم يستقل أبي السيارة إلى الجامعة، وأذهب أنا و"ليلي" إلى المدرسة، ونجلس في الفُسحة بعيدًا عن باقي الاطفال. لم تكن "ليلي" تترك يدي مطلقًا وكنتُ أنا سعيدًا لأن المدرسة لا تفصل بين البنين والبنات.

كنا نشاهد باقي الأطفال ونلاحظ اختلافهم عنا، فالبنات يرتدين الأحذية نفسها كالأولاد وأحيانًا الملابس نفسها كالجينز و"السويت شيرت" بالألوان الزرقاء والحمراء والبنفسجي وعليها خطوط أو رسومات لافتة، ونادرًا ما ترتدي إحدى الفتيات حلقًا مثل "ليلي" وبنات عمي. وحتى نحن، أصبحنا نرتدي الجينز و"السويت شيرت". وأخفت "باربرا" حذاء "ليلي" الجلدي الأبيض اللامع عن ابنتها حتى لا يسخروا منها في المدرسة.

كانت تلك الملابس تعني لنا شيئًا واحدًا؛ وهو أننا لن نكون أغرابًا عن هذه البلد، كما أصبحنا نشبه باقي الأطفال ونتحدث مثلهم، فبفضل أمنا وجدينا الألمانيين أصبحنا نتحدث لغة سليمة، كما لم نعد نستخدم ألفاظ لغة بلدنا القديم اللهم إلا فقط في بعض الأحيان يسألنا أحد زملائنا عن معنى لفظ قلناه وهو غريب عنهم وشعروا بأن نغمة اللفظ مثيرة للضحك دون أن ننتبه نحن لذلك.

اهتمت "باربرا" في ذلك الوقت أن يكون كل شيء مجهز، فرتبت الشقة واشترت لنا ملابس من محلات "C&A". ومسحت الشقة. دار بذهني وقتها

أنني لم أرَ أُمي تمسح الشقة قط، حيث كانت "روزا" تقوم بأعمال المنزل في معظم الأحيان، لذلك كان على "باربرا" أن تبذل مجهودًا كبيرًا.

كنا نقضي وقت ما بعد الظهر مع جدينا، وكنا نشعر أن شقتنا ضيقة وممتلئة على الرغم من أن أي لم يكن يأتي قبل حلول أول الليل.

كان البيت الذي يستأجره جدانا يقع في منتصف الطريق بين المدرسة وبين شقتنا، وكان أمام البيت صندوق به رمل ولم يكن يُسمح لنا باللعب فيه لأنه كان حَمَامًا للكلاب، كما يوجد مكان لركن العجل أمام باب المنزل. فكنا نضع العجل هناك يوميًا في منتصف النهار ونتناول الغداء مع جدينا ونشاهدهما وهما يلعبان الكوتشينة، وفي كثير من الأحيان، يطبخان شوربة الخضار واللحم أو السكالوب مع البطاطس، وكان جدي يعلمنا الكوتشينة. وفي أثناء اللعب، يجِبُ على "ليلي" أن تُركِّز في الإمساك بثلاث عشرة ورقة من الكوتشينة دون أن يرى باقي المشاركين في اللعبة ورقها، ودائمًا ما كان يسقط منها الورق على الطاولة في أثناء محاولتها سحب ورقة، وكانت جدي تضحك وتدير وجهها وكأنها لم ترَ ورق "ليلي".



مات أبي فجأة بسبب سكتة قلبية في أحد أيام الثلاثاء بعد الظهر في غرفة المعيشة في بيتنا بألمانيا، كنا نجلس أنا و"ليلي" بجوار بعضنا البعض عندما سقط الكوب من يده على المائدة الزجاجية بغرفة المعيشة وتطايرت الشظايا،

وعلت صرخات أُمي وظلت تنادي على اسمه بصوت قوي رنان وكأنه يقف في مكان بعيد.

عندما دخلنا إلى الغرفة، كان أبي ممددًا على الكنبه البُنيَّة كأنه نائم ويده ممدودة للأسفل، وعلى المائدة الزجاجية بغرفة المعيشة كوب الشاي المكسور و"باربرا" تجلس على الأرض وتصرخ، ونرى وجهه الأبيض يزداد بياضًا، ولم تكن ندري ماذا نفعل.

وفي باقي اليوم، أتذكر أن جدينا قد حضرا فجأة وسلّمانا لخالتي، وأتذكر أبناء خالتي الذين ركبنا معهم العجل في الفناء وجدي الذي وقف أمام النافذة وبكى، ذلك الرجل الذي دائمًا ما كنا نراه يضحك ويتحدث قليلاً، لا نراه إلا وفي يده لعبة الكوتشينة أو واضعًا الهارمونيكا في فمه يعزف عليها، ها هو يقف أمام النافذة ويبكي بصوت عالٍ ويمسح أنفه بمفرش المائدة المخطط.

سألتُ خالتي التي كانت تبكي أيضًا قائلاً:

- هل أصيبوا جميعهم بالجنون؟

ما زلت أتذكر أنني ضحكت من الخوف ومن الخجل، وكان واضحًا لي أن شيئًا سيئًا قد حدث إلا أنني ظللت أضحك.

أمسكت بذراع "ليلي" وبدأت أنفهم بعض المعلومات من كلام جدي، ففهمت أن أبي مات بسبب سكتة قلبية، فأخبرتها أن لا ذنب لها فيما حدث وأجلستها على جري.

وعندما عُدنا مجددًا إلى الشقة الصغيرة، لم نجد أبي، وجدنا "باربرا" تجلس في غرفة المعيشة ترتدي بلوفر أسود برقبة عالية وعيناها حمراوين وبقايا الزجاج المكسور مُكْوَمَةً جانبًا. انتهت "باربرا" لمجيئنا عندما وقفنا أمام الباب، وسألته "ليلي" بصوت منخفض:

- ماذا حدث لبايا؟ أين ذهب؟

قلتُ لها بطريقة قاسية فزعت أنا نفسي منها:

- لن تفهمي هذا الآن، ابقِي هادئة.

ثم أمسكت بيدها واصطحبتها إلى المطبخ قائلاً:

- تعالي، سأعد لنا شيئًا نأكله.

أعدت لنا جديتي الفطائر، وكان جدي ما زال يقف في الشرفة ممسكًا بمفرش المائدة، كما أجلست جديتي "ليلي" على مائدة المطبخ وضممتني إلى صدرها وأعطتني طبقًا من الخيار المخلل وسندوتش جبنة.

في سن المراهقة، كانت تقول "ليلي" لي مرارًا وتكرارًا إن أبي مات في الغربة مكسور القلب، فالشعور بالبعد عن الوطن هو ما كسر قلبه والرجل البدوي لا يستطيع الحياة بعيدًا عن أصله، وكنْتُ أرى ذلك سخفًا مع أنني في الوقت نفسه كنت أعرف أنها مُحَقَّة فيما تقول.

لم نتحدث مطلقًا عن اليوم الذي مات فيه، وكأننا جميعًا مسحورون أو أن القصة لم تكن حقيقية ولم تحدث وستكون واقعيًا عندما يتحدث أحد عنها، حتى "باربرا" اختفت ولم يتحدث أحد عن أن الشقة أصبحت خالية بشكل ملحوظ.

انتقلنا إلى بيتٍ آخر كان قد اشتراه أبي قبل وفاته ويقع في الحي نفسه من المدينة الذي يعيش فيه جدُّنا وفيه مدرستنا. بيت عائلة مبني على الطراز الألماني يقع في شارع "نويباو" مع جيران جدد، ومعنا في الشارع يعيش أطفال ألمان ذوو شعر أشقر مع آبائهم ويحملون أسماءً ألمانية، ويوجد شجر أبو فروة على جانبي الشارع، ويتم جمع القمامة يوم الثلاثاء. كانت الساحات أمام البيوت نظيفة والنباتات مقلَّمة، وكل مالك بيت له مكان لركن سيارته. تم تجهيز البيت بعفش تم شحنه بحرًا في "كونتينر" من بلدنا القديم إلى ألمانيا. وقد تولى بعض أصدقاء أبويّ هذا الموضوع، ففي أحد الأيام، جاءت إلينا عربة نقل وأفرغت حمولتها من العفش الذي تركناه قبل سنوات قليلة في بيتنا القديم، حيث سريري القديم وأثاث حجرة المعيشة القديمة الواسع المريح ذي الألوان الفاتحة، وكنبة وكرسي فوتيه ومائدة ثقيلة وكراسي بظهر طويل من القטיפه.

بعد أن تم تفريغ الحمولة بأكملها، وقفنا أمامها أنا و"ليلي" شغوفين، وشممنا رائحة الكلوركس وملئح الخشب، وكنت أتمنى أن تأتي سحابة محمَّلة بعطر الياسمين الخاص بـ"روزا" من البيت.

فرشت أمي حجرة المكتب الخاصة بوالدي في إحدى غرف الدور السفلي، وهي تتكون من أثاث مصنوع من خشب الكرز وأرفف لوضع الكتب عليها

ومكتب، كما وضعت على الأرفف كتب الطب الخاصة به وكذلك مجموعة مجلاته الإنجليزية "ناشيونال جيوغرافيك". وكانت الكتب مرتبة بالطريقة نفسها في ترتيبها في البيت القديم، وامتلأت الحجرة بالأزهار وبنا ولم يكن ينقصها سوى وجود أبي.



كان جدي لأبي خياطاً ولديه محل صغير في المدينة القديمة مكة، أما جدي لأمي فكان يعمل بمنجم "تسيشو هوجو" في منطقة "الرور". وكانت جدي لأبي باكستانية الأصل وتدور حولها الأساطير بأنها كانت من أسرة عريقة وهربت من أسرتها مع شخص سعودي يعمل في الخياطة إلى الدولة البدوية المسماة بالسعودية، أما جدي لأمي فكانت تُطعم الأوز في إحدى المزارع، وهي فتاة قبل أن تعود إلى مدينتها الأم بعد الحرب في منطقة "الرور" وتتزوج من شاب عائد من الحرب في "بروسيا الشرقية" وينجبا ثلاثة أبناء.

سافر أبي وهو ما زال في سن صغيرة إلى ألمانيا، حيث تعلم اللغة ودرس الطب وعمل مصادفةً في مدينة صغيرة في منتصف منطقة "الرور" وتعرّف إلى ممرضة ألمانية صغيرة السن، وسافرا معاً إلى البلد الذي تعيش به عائلته وأنجبا طفلين، ولم يكن جدّاي لأمي قد سمعا عن هذه الدولة من قبل.

إن انتقال أبويّ هو ما سبب لي عقدة حياتي؛ الحيرة بين الانتقال والبقاء، فصحيح أن المثل العربي يقول: "الحركة بركة" ولكن ليس دائماً.

- أما زلتَ تتذكر ما كنا نقوله وقتها: "في حياة التائهين، لا مكان للحب".

- "لأنهم يحتاجون إلى طاقة كبيرة للبقاء على قيد الحياة"..
نعم ما زلت أؤمن بها.

الجسور



لم تكن "ليلي" قد أدركت مدى جاذبيتها لدى الرجال، حيث كانوا يتبعونها بنظراتهم في المدرسة وحتى في المراحل التالية في "هامبورج" ويحاولون الاقتراب منها وإثارة انتباهها تجاههم، لكنهم في الوقت نفسه يتراجعون أمام تلك الفتاة الجميلة الواثقة بنفسها ذات الشعر الأسود القاتم. وفي يوم من الأيام، ونحن الثلاثة مجتمعون، قال لي "أليكس":

- أختك جميلة جدًا، سيتسبب ذلك في الكثير من المشكلات ولذلك علينا أن ننتبه يا صديقي.

لم تكن "ليلي" مُعجبة بشخصٍ آخر سوى "أليكس"، وقالت لي ذات مرة:

- أشعر أمام "أليكس" بالانبهار.



بعد حوالي ستة أشهر من سفرها إلى جدة، كتبت لي جوابًا، وكعادة جوابات "ليلى"، كان مليئًا بالبهجة ومربكا، وأخبرتني فيه أن شخصًا يُدعى "رامي" قد خطبها، وكنت أرى هذا الاسم للمرة الأولى.

فكتبت لي:

"إنه مثلنا يا "باسل"، له وطنان".

أخبرتني أنه من أم بريطانية وأب سعودي، وأنه مهندس ويعمل في شركة مقاولات عالمية مطور مشروعات.

فكتبت:

"لقد عاش "رامي" في "لندن" ويعلم تمامًا كيف يكون إحساس أن تبحث عن أصلك".

كانا قد تعرفنا إلى بعضهما البعض عن طريق أحد أبناء عمي، وهكذا تسير الأمور عندهم، أن يتعرف شخصٌ إلى شخصٍ يعرف شخصًا يريد أن يتزوج.

كنت أجلس إلى مائدة المطبخ ممسكًا بجواب "ليلى" في المسكن المشترك الواقع بحي "سانت نابولي"، ذلك المسكن الذي تركته "ليلى" ثم تركه

"أليكس"، وكان أحد المشتركين معي في السكن يجلس في غرفته على الأرض وكنت أنسى اسمه دائماً.

ظللت أنظر في الصورة المرفقة مع الجواب لحظاتٍ، تلك الصورة التي التقطتها "ليلي" للخردة القديمة وفيها منظر الميناء مع زيت السفن وبائعي السمك والصورة لها إطار ذهبي قبيح، ثم فتحتُ اللاب توب لأرد على جوابها. بدأت أكتب على اللاب توب ولم يكن مهمماً بالنسبة لي هل هذا المدعو "رامي" يعلم إحساس الحيرة في البحث عن الموطن أم لا؟ وأيضاً هل حسمت "ليلي" أمرها بالنسبة للبحث عن موطن وقررت اختيار حل غير منطقي بالنسبة لنا، لكنها ترتاح إليه؟

ثم مسحت كل ما كتبت، وكتبت فقط:

"متى يجب عليّ الحضور؟"

ثم ضغطت على زر الإرسال.



حضر المهندس "رامي" بعد صلاة المغرب، وعرفته على الفور بمجرد أن دخلت حجرة الصالون. حيث كان يتحدث مع أعمامي وأبنائهم وينظر كثيراً في التلفزيون، وفجأة وقفت "ليلي" بجانبني وأمسكت بيدي وقالت:

- كن لطيفاً، إنه رجل جيد.

فقلت لها وأنا أطقق أصابعي:

- سزى.

فدفعتنى باتجاه خطيبها وهي تقول:

- أنت مُضحك.

ثم نادى على خطيبها، فرفع نظره من التليفون، فقالت له بالإنجليزية:

- هذا أخي "باسل" يا "رامي".

فابتسم ومد يده لي وقال:

- أهلاً وسهلاً، حمدًا لله على السلامة، كيف حالك؟

قبض على يدي بقوة. شعرت بها مُفعمة بالقوة والنشاط، ولغته الإنجليزية ولكنها

بريطانية أصلية، وليست بها لهجة على عكس أبناء عمي.

قلت له:

- شكرًا، بخير، ألف مبروك، أنا سعيد برؤيتك.

فقال لي:

- حدثتني عنك "ليلي" وأعلم أن لديك ألف سؤال، دعنا نُدخن الشيشة معًا في وقت

لاحق.

كانت بشرته أفتح من بشرة عائلتي وعيناه خضراوين، وذهلت من صغره وقوته كسعودي شاب ذي جلباب أبيض وسمين بعض الشيء. كان يختلف كثيراً عن "أليكس" الذي يبلغ طوله نحو مترين. ربما تعجب "ليلي" بدلتة الرياضية الخضراء التي كان يرتديها. كان حاجباه مستويين وأظفار يديه مقلّمتين. ولم يكن لديّ انطباع جيد عن الرجال الذين يهتمون بجمال أيديهم.

قلت له:

- بكل تأكيد.

إلا أنه ركّز انتباهه مرةً أخرى على التلفزيون، فلقّت "ليلي" ذراعها حول ذراعي وذهبنا إلى الكنبّة.

قلتُ لها وأنا أنظر إليه:

- إنه يبدو شخصاً لطيفاً.

كان "رامي" يجلس أمامنا بجانب "عمر" ويحكي له شيئاً ما وهو يلوح بيده بهمجية ويريه صوراً على التلفزيون فيضحكان عليها، فأكملت كلامي لـ "ليلي" قائلاً:

- إلا أنه يجب عليك أن ترمي تلفونه.

فضربتني "ليلي" على كتفي وقالت:

- لا تعتبر الأمر سخيًّا، إن لديه مشروعًا كبيرًا، لذلك يتفقد الإيميل باستمرار.

كان شيئًا جيدًا له أن يحظى بهذا الحب من شخصية مثل "ليلي"، تلك الفتاة التي لا تسمح بالعلاقات الرمادية غير الواضحة، وإما تختار أحد اللونين الأبيض أو الأسود، فحتى "أليكس" لم يستطع أن يستمر في حبها وكانت تقول لي دائمًا:

- إنه لا يستطيع تحمل حبنا لأنه يُحطِّمه.

سألتها:

- وماذا ستفعلين بعد زواجكما؟ هل ستستطيعين العمل بعد الزواج؟

فقلت:

- سأستمر في إعطاء كورسات اللغة الألمانية، فـ"رامي" ليست لديه مشكلة في ذلك،

وسيسمح لي عمي "خالد" بالعمل في الشركة بين الحين والآخر إلى أن تتحسن لغتي العربية.

ثم نظرت في خجل وقالت:

- ونريد أيضًا أن يكون لنا أبناء قريبًا.

كانت "ليلي" قد كتبت لي قبل ذلك أن الإنسان يحتاج إلى مكان ثابت يعيش فيه، وأن

يكون هذا الشيء المسمى بالأسرة فقالت:

- المبدأ الأساسي هو أن الإنسان يُنتج، وعندما يفترق الإنسان إلى إحدى ضفتي جسر من آلاف الجسور التي تملأ الدنيا ويترك النجوم على الضفة الأخرى، ينتهي الأمر بأن يقف أحدهم على أحد جانبي الجسر وينتظر ويتساءل: لماذا لا تتحرك باتجاهي؟ حينها يجب عليك أن تتحرك إلى الآخر وتبقى بجانبه.

كانت "باربرا" تقول: إن "ليلي" تكذب على العائلة وأن هذا كله نزوة من نزواتها. والآن تتحدث عن الأطفال وهي مثبتة في أحد جانبي الجسر، إن هذا يغيظني بشكل أكبر. لكنني نظرت إليها وأنا أعلم أن "باربرا" لم تكن محقة، فـ"ليلي" لا تكذب على العائلة فهي مقتنعة بما تقول.



وبعد تناول الطعام، انصرف "رامي" وسط توديع حارٍّ من الجميع، كما مسحت "ليلي" على كتفه برفق وهمست له بشيء. ولم نكن قد تحدثنا أنا و"رامي" إلا عن عمله وعن الأيام التالية، ولم يكن هناك وقت لندخن الشيشة معاً. شعرتُ بأنني محظوظٌ لذلك، حيث قال "رامي":

- يجب أن أذهب إلى المكتب يا صديقي، فالمشروع يجب أن يقف على قدميه قبل أن نبدأ رحلاتنا، لكننا سنجلس معاً مرة أخرى، يجب أن تحكي لي عن "هامبورج" فأنا معجب بمنطقة "هافن سيتي".

جلس عمي "خالد" معي أنا و"ليلي" وأحضرت لنا "ماري" الكعك والشاي والقهوة والتمر على الرغم من أننا جميعًا لم نكن نستطيع أن نأكل شيئًا آخر بعد وجبة العشاء الدسمة.

استرحنا على الفرش المريح وشربنا الشاي واستمتعتنا بلحظة الهدوء، وظننتُ أن عمي "خالد" قد دخل في النوم، إلا أنني لاحظت يده التي تتحرك بين حَبَّات السَّبَّحة وفمه الذي يتحرك بشكل غير ملحوظ.

قالت "ليلي" وهي تمسح على ظهر عمي "خالد" بحنان:

- هل تم اشتقاق كلمة "جدة" في اللغة العربية من الجدة - أمُّ الأب أو أم الأم - فهناك خرافة تقول إن قبر حواء أم البشر يوجد هنا، فبالنسبة لعمي، فإن هذه علامة أكيدة على أن مهد الحضارة ومولد الإنسان كانا هنا.

قال عمي وهو ينظر إليَّ بعينه السوداوين اللتين تظهر حولهما ابتسامته:

- انظر يا ولدي، الله نظر إلى تلك البقعة أولًا، التي انتهى فيها مطاف أمنا "حواء" في نهاية رحلتها. صحيح أننا جميعًا سنتجمع مرة أخرى هنا، ليتحقق مُراد الله - يا رب - وتبدأ كل قصة وتجد نهايتها. أختك أحست بذلك فأطاعت أمر الله يا "باسل".

قالت "ليلي" وهي تضحك:

- لقد أردت فقط أن أكون مع عائلتي يا عمي.

قال عمي "خالد":

- لديّ شيء لكما.

ثم أكمل وهو يلوّح إلى "ماري":

- أحضري الظرف من المكتب.

عادت "ماري" بعد فترة قصيرة، وأعطته ظرفًا بُنيًا، ففتحه عمي في ببطء وتأثني بأصابعه الممجّدة وأخرج منه كومة من الصور. وكانت الصورة العلوية تُظهر عمي نفسه في أثناء أدائه الخدمة العسكرية، وكان يبدو في الصورة الصفراء صغيرًا جدًّا في السن، وصورة أخرى لجدتي العربية - ستي - التي لا نتذكرها، حيث ماتت ونحن ما زلنا صغارًا، وتظهر في الصورة وهي ترتدي قفطانًا أخضر فاتحًا وتجلس على كرسي فوتيه وتنكبُّ على كتاب وترتدي على رأسها حجابًا أسود وتحتة ضفيرة رمادية فضية طويلة ذو ثلاث تعقيدات.

بدأ عمي "خالد" يحكي فائلاً:

- ذات مرة، و"ليلي" عُمرها بضعة أشهر فقط، كان أبواك في زيارة هنا. أردنا أن نخرج نحن الأربعة وكنا ما زلنا في سن صغيرة، وكانت عمتك قد فصلت طقمًا جديدًا ما زلت أتذكره، حيث الجيب الخضراء كلون النجيل في ألمانيا، ولم يكن أحد هنا قد ارتدى هذا اللون من قبل، فالأذواق هنا تبدو كالتراب على العفش، لقد كان الطقم رائعًا وكانت فيه تشبه المغنية "فيروز"، كما تزيّنت أمك أيضًا وذهبتنا بالسيارة إلى حفلة راقصة بنادي الدبلوماسيين. وظلت جدتك هنا ترعاك أنت و"ليلي" وأيضًا "عمر" و"سحر" اللذين كانا أكبر

منكما، ولكنني لم أعد أتذكر كم كان سنهما حينها. عمته هي من تتذكر تلك التفاصيل، ولكن في كل الأحوال، ظلت جدتك ترعاكم، هل ما زلت تتذكرونها؟ إنها أمي وأم أبيكم. أنتِ تشبهينها يا "ليلي" يا بنتي، انظري هنا في الخلف حيث توجد لها صورة، كان لديها شعر طويل مثل "سحر" ومثلكِ أيضًا سابقًا، حيث كانت الضفيرة تُجرُّ على الأرض وكانت تحرق مقدمتها بالفحم حتى لا تنمو أكثر من ذلك، فينتج عن الحرق رائحة قبيحة لا زلت أتذكرها، فقد كنا نظن أن أحد الكلاب المتوحشة قد سقط سهوًا في النار. ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم لقد تذكرت، كيف كانت جدتك ترعاكم. تأخرنا في الحفل حتى الثانية أو الثالثة، وكانت لدينا طاقة وقتها لنكمل الحفل، وكانت عمته وأبوك يرقصان بشكل جيد، وأخبرتنا جدتك أنك لم تكن لديك رغبة للنوم يا "ليلي" يا بنتي وظللت تبكين. وعندما دخلنا من باب الشقة، كانت هي جالسة على الأرض كعادتها وقد جعلتك تنامين في حجرها وغنت لك وهي تهزك، وكنت أنتِ تضحكين في سعادة يا بنتي. كانت قد كحلت عينيك ووضعت حنّة في يديك على شكل شجيرة صغيرة حول أصابعك، كنت تبدين جميلة جدًّا كالمرأة البدوية، فضحكنا جميعًا ما عدا أمكِ التي جذبتكِ من يد جدتك وبدأت تشتم بالألمانية وتصرخ في وجه أبيك، ثم بدأت أنتِ أيضًا تصرخين في ظل محاولات أبيك أن يهدئكما، وجدّتك لا تفهم ما حدث، فهي تريد فقط أن تهدئك. لم تكن أمكِ تعلم عاداتنا في التعامل مع الأطفال، أظنُّ أنها فرغت من الكحل والحنة، إلا أنه قلّقى مُبالغ فيه، حيث كانت أمكِ تبكي أكثر وأكثر ولا أستطيع أن أفهم شيئًا منها إلا اسم أبيك الذي ظلت تكررهِ كثيرًا "طارق" وضمته إلى صدرها محاولة مسح

الكُحل بكمها. وساعدتها عمتكِ في تنظيفكِ، وبدأ أبوكِ يُفهمنا أن في ألمانيا يكون الأطفال الرُّضّع نائمين في مثل هذا التوقيت، كما أنهم لا يضعون للأطفال أي مأكياج. وقال إنه لا أحد هناك يفعل ذلك، ولذا فزعت أُمكِ - والتي نسميها "فاطمة" أيضًا - فهي لا تعرف العادات هنا، وكانت وقتها صغيرة السن، أصغر من سنكِ الآن يا "ليلي".

استطعت أن أتخيل صورة "باربرا"، تلك الشابة الشقراء ذات قصة الشعر القصيرة على الموضة وهي ترتدي فستان سهرة أزرق أو أخضر فاتحًا - الألوان المفضّلة لها - وترى ابنتها بين يدي حمايتها البدوية ترسم لها الحنة وتضع لها الماكياج مثل الأميرات الكارتونية. أعطانا عمي "خالد" صورة بالأبيض والأسود بها أربعة شباب ذوو أعين سوداء واسعة يقفون بجانب سور وينظرون إلى الكاميرا في قلق، أحدهم أبي والآخرون إخوته، وتبدو الصورة كأنها من قرنٍ آخر ومن حياة أخرى.

فهمست لي "ليلي" قائلة:

- هل هؤلاء المجانين أقاربنا؟

قال عمي "خالد":

- كان أبوكِ رجلًا طبيعيًا، فكان يحب مساعدة الجميع، لذلك أراد أن يكون طبيبًا، ولم يكن يمكنه دراسة الطب هنا في ذلك الوقت، فأرسلناه في منحة إلى ألمانيا وجمعت الأسرة المال من بعضها البعض لباقي أغراض معيشتهم هناك،

حيث تشارك عمك وعمتك وأبواي وجدّاي، جميعهم كانوا يريدون أن يكون "طارق" طبيبًا. أخرج عمي "خالد" صورة أخرى لحفل زفاف أبي وأمي. كان أبي يضحك ويحمل على يديه أمي الشقراء التي ترتدي فستانًا أبيض وهما يضحكان ويتصرفان على طبيعتهما في ممر خشبي في إحدى الدوائر الصغيرة للأحوال المدنية بألمانيا، ويساندهما جدّانا الألمانيان صحابا المذهب البروتستانتي وهما يرتديان ملابس يوم الأحد المكويّة التي تغطي الرقبة، حيث ترتدي جدتي أحد فساتينها المشجّرة لونه أزرق غامق وياقته بيضاء وشعرها مجعّد، وبجانبها جدي الذي يرتدي بدلة واسعة قليلاً وكرافتة محكمة الربط. وبجوارهما عمي "خالد" وعمتي "بسمه" كأنهما أخوا الملك وينظران في ترنّب لوالديّ العروس. كانت عمتي ترتدي فستان سهرة أحمر ومُمسك شنطة يد ذهبية اللون وشعرها يبدو أنيقًا بتسريحة شعر كموج البحر، تلك السيدة التي كنا نحبها طوال طفولتنا وكانت "ليلي" تريد أن تكون مثلها.

أمسك عمي "خالد" كتف أخيه - العريس الجديد - وضحك في وجهه ضحكة صافية، وبذلك لن يكون للعروس الجديدة ما تخشاه. سألت نفسي لماذا لم أر تلك الصورة من قبل؟

كانت جدتي الألمانية تقول دائماً: إنها لم تجد على الخريطة من قبل ذلك البلد الذي ستزوج فيه ابنتها، وكانت تقول عنه إنه بلد من وحي الخيال.

قال عمي "خالد" وهو يمسخ بيده على صورة الزفاف:

- جدك الله يرحمه لطّف الجو، حيث ذهبنا جميعًا لحضور حفل الزفاف في ألمانيا، ولم تكن جدتك قد ركبت الطائرة في حياتها، كنا في منتصف الشتاء والجو شديد البرودة، أظنُّ أنه كانت هناك ثلوج تتساقط. لم نفهم لغة جدّيك الألمانيين ولم يفهما لغتنا أيضًا، كانت أمك ما زالت صغيرة وقلقة، فلم تكن تنطق بكلمة وتتنظر فقط إلى أبيك، كما أقبل جدُّك الألماني إلى أمي وحضنها، أظنُّ أن جدتك لم يلمسها رجل قط في حياتها إلا زوجها، فنظرت إليه في دُعر وكذلك كان رد فعل أبيك أيضًا، أظنُّ أن أمك حينها تمت لو أن الأرض انشقت وابتلعته، لقد كنّا جميعًا ما نزال صغارًا.

رفع عمي "خالد" نظره عن الصورة ونظر إلى "ليلي" وأمسك يدها ومسح برفق على أصابعها الرقيقة، فوضعت "ليلي" الصورة التي تمسكها في يدها الأخرى على المائدة وأمسكت يد عمي المجدّدة بقوة.

قال عمي "خالد":

- عندما أراد أبوك أن يتزوج أمك، قال الجميع هنا: "لماذا يريد الزواج بألمانية؟ فهنا توجد الكثير من الفتيات الجيدات"، ولكنه لم يرد، فسافرت إليه في ألمانيا لأتحدث معه ولأرى تلك الفتاة الألمانية، فقد كانت صغيرة السن، أصغر من سنك الآن يا بنتي وشديدة الجمال وممتلئة بالحيوية، حينها تفهمتُ أخي. طلبت منها أن تطبخ لي أرز بخاري ومحشي.

ولمعت عينا عمي وامتلأتا بالذكريات وبالحب، وأضاف:

- بالطبع لم تكن تعلم أنني أختبرها، ولكنها طبختهما بشكل رائع، فقد علّمتها أبوك بشكل جيد، وبعد الأكل، ذهبت معها إلى المطبخ لأرى كيف تعدّ القهوة. أتعلمون؟ هذا الاختبار يُجرى لكل زوجة ابن، فالقهوة يجب أن يتم إعدادها ببطء، كما يتم سحب الكنكة في الوقت المناسب حتى لا تفور القهوة، وإذا فعلت أي فتاة ذلك، تكون هي الزوجة المناسبة لأنها سيكون لديها الصبر والثقة بالنفس كي تتصرف بسرعة في الوقت المناسب.

فنظرتُ إلى "ليلي" وسألتها:

- هل يجب عليكِ أيضًا أن تُعدي القهوة؟

فقالت وهي تضحك:

- أظنُّ أن هذا الأمر لم يعد موجودًا.

فقال عمي "خالد":

- "ليلي" يا بُنتي، يؤسفني أن أمك لم تستطع المجيء، يجب أن تفهمي أنها لم تغفر لأبيك

أنه رحل. عمك تقول دائمًا: "الحظ يدقُّ باب البيت الذي يوجد به أمل، كما تأتي لحظة تُخبئُ

الكثير من الخير"، إن شاء الله تكون هذه اللحظة مع "رامي"، وبالنسبة لأمك، فقد مرت

عليها اللحظة مسرعة، لذلك يجب أن تسامحها.

رُفِع الأذان بالخارج، فقام عمي "خالد" ليستعد للصلاة، وفي أثناء مروره بجانب "ليلي" وهي منكبّة في مجلسها على الصور تنظر إليها، قبّلها رأسها ذا الشعر الأسود، كما ربّت على كتفي. سألت الدموع من عيني "ليلي"، فحبست دموعها أنفاسي وأردت أن أحملّ أحدًا المسؤولة سواء أكان "أليكس" أم "باربرا" أم أي أبله قد أزعجها يومًا ما. إنني لست غريبًا عن "ليلي".

لم أهنأ بالنوم في المساء، وحلمت أنني في منطقة مليئة بالوحل ومحاطة بالنخيل، أرضها لونها بني غامق ويخرج منها بخار. شعرت بالأرض ناعمة وطريّة تحت قدمي، ثم نظرت إلى قدمي الحافيتين الغارقتين في الوحل، وتتسلق الخنافس الصغيرة الصفراء والخضراء عليها حتى تصل إلى طرف بنطلوني ثم تتسلل داخله. كان هناك أيضًا دخان ساخن ورطب يتسلل داخل البنطلون كالخنافس وينتشر في ملابس كلها.

كنت واقفًا في صالة خالية في بيت له سلام مظلمة كبيرة وشبابيك عالية، وتقف امرأة على السلم وتنتظر من النافذة وهي تلتف في خيوط رفيعة من الحرير وتبدو كالمصلبة.

شرنقة من الزجاج وامرأة تنظر من النافذة.



دُرّة



ذهبنا في عطلة نهاية الأسبوع إلى الشاطئ، حيث استأجر "رامي" بيتاً كبيراً للعائلة كلها في كومباوند "دُرّة العروس" الذي يبعد ساعة عن جدة لقضاء العطلة فيه؛ حتى نتمتع جميعاً ببعض الاستجمام قبل صخب حفل الزفاف.

قال لي "رامي" في المساء:

- الكومباوند جديد وعصري، وهناك تقود الفتيات السيارة ولا يتقيدن بارتداء العباءة،

فكل شيء هناك مُيسّر والسيدات تسبحن وتجلسن في مطاعم تطل على البحر.

بدا على "رامي" أنه يهتم بأن أعتبره متحرر الفكر، ربما يكون كذلك بالفعل.



كنا نقضي العطلات جميعها في الماضي على البحر ولكن ليس في "دُرّة"، فلم يكن أبي يستأجر بيتًا وإنما يملأ السيارة بالسجّاد والمُبرّدات والشيشة، وكنا نقف بالسيارة على الشاطئ كما تفعل العائلات جميعها بعيدًا قليلًا عن الكورنيش، ثم تبسط "باربرا" السجّاد، في حين نتردي أنا و"ليلي" ملابس السباحة، ويُشعل أبي الفحم في شواية ليضعه على حجر الشيشة. وفي المساء، نشوي الذرة والكفتة على الشواية نفسها، كما نحفر أنا و"ليلي" في رمال الشاطئ ونسبح في البحر وأبي وأمي يجلسان في ظل السيارة يراقباننا.



ركبتُ أنا و"ليلي" السيارة مع "رامي" والآخرين يتبعوننا بسياراتهم، حيث أجلس أنا بجانبه وتجلس "ليلي" في الخلف مثلما كنا نفعل في الماضي، فعندما عرضت عليها الجلوس بجانب "رامي" قالت لي:

- أنت تعلم أنني لا أحب الجلوس في الأمام.

كانت شمس ما بعد الظهر حارقة، فلبست نظارتي الشمسية، كما كانت الرحلة شاقّة وطويلة، والطريق مزدحم بالسيارات التي تسير في مسارات متعرجة أمام بعضها البعض على الكورنيش في اتجاه الطريق السريع، وهناك أطفال يلوّحون من شبابيك السيارات والسائقون يستخدمون آلات التنبيه ويصيحون في وجه بعضهم البعض والسيدات يرتدين الحجاب. نظرت في مرآة السيارة، فرأيت "ليلي" ترتدي عباءة سوداء فقط فوق ملابسها الصيفية الحمراء وتضع حجابها على كتفها كأنه شال وتُرجع نظارتها الشمسية فوق

شعرها للخلف. تلاقى أعيننا في المرأة، فابتسمت "ليلي" ابتسامتها الجذابة وهزت رأسها وأعطتني لبانة، و"رامي" غارق في اتصالات تليفونية لا تنقطع عبر سماعة الرأس، ففي البداية، كانت الاتصالات مع زملاء العمل ثم أصبحت الاتصالات لطلب العشاء.

ظلت الشمس حارقة عندما وصلنا "درة العروس". فحص أحد الحراس الواقفين عند الباب رخصة "رامي". كان الحارس يرتدي زياً أبيض ويُعلّق مدفع رشاش على كتفه ويبدو أنه لا يزيد سنه عن ستة عشر عاماً. لكنني "رامي" بمرفقه برفق وقال لي:

- ستكون رحلة ممتازة يا صديقي، فالكومباوند جديد وسيُعجبك.

فأثارتني فخره وحماسه.

سرنا بالسيارة ببطء داخل الكومباوند بين المحلات الصغيرة وأماكن الجلوس على الشاطئ وطرق سير السيارات الممتلئة بالزعر، كما توجد ملاحٍ صغيرة تنطلق منها الصيحات والصفافير، وتلمع أضواء ملوثة مع بداية غروب الشمس. بدا كل شيء كأنه داخل عدسة كاميرا. وضعت "ليلي" يدها على كتفي فالتفتُ إليها فهمست قائلة:

- أفضل من ديزني، أليس كذلك؟

فابتسمنا في وجه بعضنا البعض، وقال "رامي" ضاحكاً:

- ألدكم سر تخفونه عني؟

كانت هذه هي المرة الأولى منذ قدومي التي أشعر فيها بشيء من الراحة في صدري.

كان البيت في الجزء الخارجي من الكومباوند، وسط سلسلة من الفيلات متوسطة

المساحة أمامها سيارات فارهة، والسائقون الباكستانيون يجلسون على الرصيف يدخنون

السجائر ويأكلون السندوتشات.

قال "رامي" وهو يُغلق باب البيت:

- ادخلوا، اتركوا الحقائق في السيارة وستقوم الشغالات بإدخالها.

يوجد حمام سباحة في الفناء الداخلي أمام باب البيت، فقال "رامي" وهو يبسط يده كأنه

هو الذي قام ببناء البيت بنفسه:

- رائع، وهناك جاكوزي كذلك، هذا ما أردته بالضبط.

فهبزنتُ رأسي في صمت، في حين أمسكت "ليلي" يد "رامي" وهمست له بشيء فضحكا

ووقفْتُ أنا أنظر إلى حمام السباحة واضعًا يديَّ في جيبيَّ.

كان من الممكن رؤية ما بداخل البيت، لا توجد مساحة إلا في غرفة المعيشة، حيث يوجد

تلفزيون كبير معلق على الحائط تُعرض على شاشته حفلة مُسجَّلة.

في تلك الأثناء، حضر الجميع، "عمر" وزوجته وعمي "خالد" وعمتي "بسمة" وباقي أبناء وبنات أعمامي، فوزعهم "رامي" على ست غرف نوم، وأنصتُ أنا قليلاً، فسمعت ضجيج العائلة الذي بدأ بالظهور.

كان في غرفة المعيشة باباً جرازاً يوصل إلى حديقة صغيرة مفتوحة على البحر يفصلها عن أرض الجيران سور من نبات الجهنمية والورد، كما توجد كراسي من القش وشمسيات. ويبدو أن هناك من جهَّز ثلاثاً من الشيشة قبل وصولنا.

خلعتُ حذائي، وذهبت ببطء إلى البحر، وغاصت أصابع قدمي في الرمال الدافئة الناعمة. كانت الشمس على وشط الغروب، والسماء ملوّنة باللون الأحمر والأصفر والبنفسجي. على الشاطئ بعض الأرائك والشمسيات ولعبة أطفال ملقاة، ومن بعيد يظهر ضوء الميناء، والبحر تعلوه أمواج هادئة مع هواء الليل الدافئ لدرجة ينسى معها الإنسان أين يقف في هذا العالم الواسع.

تختلط مجموعتان من الأصوات قادمتان من البيت خلفي، صوت الموسيقى القادم من التلفزيون وصوت أحاديث مرتفع.

أغلقت عيني، وتنفست الهواء الدافئ، فسمعت صوت "عمر" يقول لي:

- "باسل!" "باسل!" يا باشا، هيا نذهب لإحضار الأكل، يمكنك السباحة في وقت آخر.

ظهر "عمر" بجوارتي وهو يرتدي شورت هاواي مُشجَّر وتيشيرت جامعة "ميشيجان"

وشبشب زنوبة أخضر.

قال لي وهو يشير إلى البحر ويعطيني سيجارة:

- لا يوجد مثل هذا عندكم في ألمانيا، أليس كذلك؟

فقلت له وأنا أشعل السيجارة "المارلبورو":

- لدينا ميناء ونهر يصبُّ مباشرة في البحر.

فقال "عمر":

- لدينا هنا ميناء أيضًا، ولكن لا يمكن السباحة بالقرب منه، هيا بسرعة، يمكنك قيادة

السيارة.

ذهبنا بالسيارة خلال الكومباوند المضاء بأنوار مبهرة إلى ممشى الميناء، ومررنا على محلات

صغيرة تباع كرات البحر ومراتب هوائية، وعلى المانيكان يتم عرض ملابس بيكيني ملوَّنة.

في المطاعم، تجلس السيدات والفتيات يدخُنُ الشيشة بلا حرج مع عصير كوكتيل الفواكه،

وفي مكبرات الصوت، نسمع أصوات أغاني بوب من تسعينيات القرن الماضي.

تركنا السيارة، وسرنا إلى أحد المحلات. كانت توجد أعلى البار لافتة مضيئة عليها دعاية

للأكلة اللبنانية مشوية، ومن مسافة بعيدة، رأيت فرنين عظيمين تخرج منهما النار وتفوح منهما

راحة اللحم المشوي.

جلسنا في تراس المحل؛ لأن طلباتنا لم تكن جاهزة، وقدم لنا صاحب المطعم كوبين من

الشاي، وقال لنا وهو يمد يده إلينا ويتبادل الاحترام مع "عمر":

- هذا من أجل الانتظار.

جلست على المائدة المجاورة لنا مجموعة من المراهقات - لو وُجدوا في ألمانيا في حي

"سانت نابولي" فلن يلفتن الأنظار إليهن - يرتدين نظارات كبيرة وسماعات رأس كبيرة، وكل

منهن منشغلة بتليفونها الـ"آيفون"، ويتحدثن بالإنجليزية والعربية في الجملة نفسها ويصرون

أنفسهن ووجباتهن. جلست إحداهن تكتب في مفكرة سوداء رقيقة.

جاءت فتاة أخرى فجأة وجلست مع الأخريات، ثم نظرت باتجاهنا ولوّحت بيدها

وصرخت قائلة:

- في حاجة؟!!

ودبّت الحركة فجأة بين مجموعة الفتيات. حيث ارتدين العبايات وسماعات الأذن

بسرعة، وبعضهن دخل إلى المطعم، حيث وقفن واختفين وراء منطقة الرجال في المطعم،

وتركن وراءهن بعض كوكتيل الفواكه الملون والبطاطس.

ارتعشت كتفا "عمر" وبدا عليه الاندهاش وقال:

- حاجة! بالتأكيد تقصد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبعد لحظات، حضرت في الممشى دورية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برجالها ذوي اللّحي والجلابيب البيضاء، وقام أحدهم باستدعاء إحدى الأمهات صغيرة السن ووجه لها تحذيرين بأنها ستدخل النار لأنها تقود العجلة مع ابنها الصغير في مكان مفتوح، فهزت الأم رأسها وأكملت ما تفعله.

رأنا رجلاً آخر تابع للدورية ونحن جالسون في التراس شبه الخالي للمطعم فهمس في أذن زميله بشيء ما ثم توجهنا إلينا، واستمعت فقط إلى ألفاظ مثل:

- حرام، منطقة عائلات، خلف الحائط، اخجلا من أنفسكما، أتريدان النظر إلى النساء؟
أخرجت التليفون الخاص بي لا إرادياً لألتقط صوراً للرجلين وأرسلها لـ"أليكس" و"ليلى"
حتى يضحكا عليها ضحكاً هستيرياً، إلا أن "عمر" وضع يده على ذراعيه وأنزله للأسفل، وقال لي هامساً:

- لا تنسَ أين أنت.

وللحظة، لم أدرِ أكان "عمر" يمزح أم أن الأمر بهذه الجدية؟
وفي تلك الأثناء، تحدث أحد العاملين في المطعم مع الرجال ذوي اللّحي لبعض الوقت وكان يلوح بيده ثم نظر الرجلان إلينا وسلماً على العامل.

نظر "عمر" إليّ نظرةً صارمة، ثم ضحك وقال لي:

- لا تخف يا باشا، هنا لا يجب أن تقلق. فهؤلاء يحاولون فرض سيطرتهم هنا، فلا تُظهر

الخوف، تمامًا كما تفعل مع الكلاب.

ثم قام من الكرسي وقال:

- تعالَ معي، فقد حان وقت استلام الطعام.

بعد تناول الطعام، جلسْتُ أنا و"ليلي" على الشيرلونغ أمام البحر مباشرةً، وفوقنا سلسلة

أضواء مُعلقة. عكست الأضواء حالة من الهدوء والصفاء النفسي. كان الآخرون قد ناموا،

باستثناء "عمر" و"رامي" اللذين جلسا أمام التلفزيون الكبير يلعبان "البلاي ستيشن" لمدة

طويلة ويتبادلان اللعنات. أما أنا و"ليلي" فظللنا ننظر إلى البحر وهو يصطدم بالحجارة

والطوب فتتفرق مياهه.

قالت "ليلي":

- لقد كرهت المدينة، بكل مساوئها، وبكل ما تفرضه. لقد كرهت أنهم دائماً ما يقولون لنا

إننا نتمتع بأفضل ما في هذين العالمين، يقولون إننا استلهمنا الأفضل فقط لأننا انغمسنا في

ثقافتين، إلا أن معظم من نقابلهم يريدون منا دائماً أن نتحيز إلى جانبٍ واحدٍ فقط ويبحثون

فقط عن المألوف بالنسبة لهم، ولكنهم لم يصرِّحوا بذلك. لن يصرِّح أحد لك بأن هذه المأساة

ستنتهي وأننا لن ننتمي إلى الثقافة المناسبة لنا.

نظرتُ إليها، وكان نصف وجهها في الظل، إلا أن عينيها كانتا تلمعان، تُعد

هذه هي المرة الأولى في كل تلك الأيام التي تتحدث "ليلي" فيها بشيء يتوافق مع

قناعاتي. كانت من قبل تشرح وتتعلم في الشرح وتُنظّم وتضحك برفق، إلا أنها في هذه المرة تحدثت بقرب وبصوت عالٍ وبحماسةٍ. وعلى الرغم من ذلك، فلم يفارق نظرها البحر. وأكملت حديثها قائلةً:

- ثم يطرحون أسئلةً غبيةً مثل: "يا إلهي، أمتلك عائلتكِ مصادر بتروول؟" وأيضًا: "إنكِ ما زلت صغيرة لدرجة أنك لا تستطيعين الزواج؟" ومن المُفترض دائمًا أن يكون الجانب الذي تختاره هو الأفضل، ويجب علينا أن نُفضّل الطريق الوسط الذي يؤدي إلى الأحسن. أخذتُ رشفةً من عصير المانجو، وجزعت من كثرة السكر به، فحتى العصير هنا سُكّرهِ زيادةً.

بالطبع "ليلي" لديها حق فيما قالتها، إلا أنه جعلني غاضبًا. فسألت بكل تكبر وأنا متكئ:

- هل كل شيء في ألمانيا سيئٌ جدًّا؟

كان يجب أن أفكر في "باربرا"، التي تجلس في مطبخها تُدخن السجائر وتلعب البازل، وفي "يوليا"، التي لا تجرؤ أن تقول لي إنها تريد علاقةً حقيقية، وفي "أليكس"، الذي لا أعلم شيئًا عنه منذ شهر لأن حكايات أختي أصبحت في النهاية ثقيلة بالنسبة له ففضل أن يبتعد عنّا حتى لا يتعطل.

أتانا من غرفة المعيشة صوت ضحكات وأصوات سباق "الفورميلا 1".

قالت "ليلي":

- أ لا يجب أن أوضح لك ذلك يا "باسل"؟ إنه من السخف الشديد أن يقولوا: "رائع جدًا أن لديكم ثقافتين". لا أحد يريد أن يفهم. لقد ضيعت الكثير من الوقت مع أناس كانوا يريدون إقناعي أنني مخطئة ويريدون مداواتي لأنني لا أرى النعيم الذي أنا فيه. سوف يصل هؤلاء أنفسهم إلى حقيقة أنه ليس هناك من يعيش في نعيم مطلق. إنهم لا يشعرون بك كما تشعر أنت بهم. إنهم يجدونك جذابًا ولكنهم لا يفهمون انكسارك.

احمرّ عنق "ليلي" تمامًا كما يحدث دائمًا عندما تغضب، وصنعت بقدميها الحافيتين دائرة في الرمال واستمرت في تجنبها النَّظْرَ إِلَيَّ.

وأكملت قائلةً:

- لقد كرهت قولهم: "يا له من شيء رائع! يا له من شيء ممتع"! يجب عليهم أن يتكروني وشأني، فأنا لا أريد سماع هذه الكلمات مجددًا. وكل من هنا لا يعلمون شيئًا عن حياتي السابقة وكيف تربيت، ولكن ذلك لا يهمهم. لقد تقبلوني على هذا الوضع، وعندما يبدو لهم مني شيء غير مألوف بالنسبة لهم، تراهم يهزون أكتافهم ويقولون: "إنه عرقها الألماني".

فقلْتُ لها:

- أنا لا أفهم ذلك، الآن تنظرين إلى الأمور بهذه الطريقة، أين كان تفكيرك من سنة أو...

فقاطعتني وقالت:

- بالتأكيد يوجد في ماضي كل إنسان خيارات أكثر من خياراته الحالية، وبالأخص في حياة المرأة، ولكن بيم يفيد الندم! بيم يفيد كونهم صامتين وباردين على الرغم من حريرتهم التي يتمتعون بها، ودائمًا ما يكررون الأشياء نفسها، بيم تفيدني كل تلك الإمكانيات إذا لم ينشئوا ترابطًا بينهم، ما فائدة أن يظل الإنسان وحيدًا في مدينة قمعية صغيرة لأنه يعرف أشياء كثيرة جدًا، وآلا يتمتع الإنسان بحريته المطلقة لأنه دائمًا يجب عليه أن يقرر ويسعد بقراره. ما فائدة أن تؤكد لهم دائمًا مدى سعادتك وتقديرك لأنك هنا؟ إن مشاعرهم لها ثمن وهو العرفان الأبدي من أجل أن تحظى بمشاعرهم الكاذبة. أيجب علي أن أنحني للأبد لأنني نشأت في هذا المكان الموحل الصغير مع أشخاص ثقلاء على القلب يعتقدون أن أمي رحلت بنا ونحن طفلان في أثناء الليل هربًا من زوجها الهمجي؟ أنتعلم كم من المرات استمعت إلى هذه القصة؟ كانوا يقولون: "نعم، السعودية، تمامًا كما حدث في فيلم "ليس بدون ابنتي" "Nicht ohne meine Tochter" ربما يدفعني ذلك إلى التقيؤ يا "باسل". من الذي سألك كيف سارت الأمور وكيف كان شعوركما في طفولتكما؟ من الذي يريد أن يفهم؟ إنهم يفكرون دائمًا ويعرفون كل شيء، كما كُونوا صورة عنك بمجرد أن سمعوا اسمك فقط. لقد قضيت النصف الأول من حياتي أشبه بدمية أميرة الصحراء

المُرببة بعينها الكبيرتين والهرم في فناء الحديقة، ثم حدث ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر وتحولنا جميعاً إلى إرهابيين، ولم يكد يوجد قبل ذلك التاريخ من يعرف الإسلام، وكُنَّا ضمن الوافدين من بلدٍ تركب الجمال، وأنت أيضاً يا "باسل" شاركت في هذا الوحل، لا تنظر إلي و كأنني أتوهم، لقد وجدتُ نفسي فجأةً أدافع عن ارتداء الفتيات للحجاب على الرغم من أنني لم أكن أريد ارتدائه، لقد شعرتُ فجأةً أنني مجبرة على الدفاع عن دين لا علاقة لي به، لكنه فُرض عليّ، لقد قال السبّاك ذات مرة: "إنك تتحدثين الألمانية جيداً" وسألني إذا كنتُ أعرف هؤلاء الإرهابيين الذين جاؤوا من جامعة "هامبورج".

ثم انحنت "ليلي" وأمسكت بقطعة حجر وألقتها في الماء بكل قوة.

ثم أكملت قائلة:

- لقد وجدت هنا موطنًا حقيقيًا يا "باسل"، يمكنني أن أنطلق منه إلى كل مكان ثم أعود إليه مجددًا، ولا يوجد هنا أحد يريدني أن أقرر ما يخالف رغباتي.

نادى "رامي" من التراس قائلاً:

- سنذهب للنوم، اعتنِ بعروستي يا أخي.

فأشرت إليه بإبهامي. ولمّا التفّْتُ، وجدت "ليلي" تنظر إليّ للمرة الأولى وعيناها مكسورتان

وحمران.

ثم أكملت كلامها قائلةً:

- أنت تسير مع التيار دائماً يا "باسل"، أو تتبعد وتتفادى الاصطدام به، لقد تجمّد فكرك ومشاعرك مثل أمي، لأنك لا تعلم طريقك. قف في وجه التيار يا "باسل"، وافعل شيئاً لحياتك، خذ قرارك. لقد انسحبت "باربرا" من الحياة منذ وقت طويل، أتريد أن تكون مثلها؟ أتريد ذلك؟

أردتُ أن اعترض على كلامها، ولكنها أمسكت بيدي وضغطت عليها. ثم قالت:

- في حياتنا القديمة لم نعش أي شيء جميل يا "باسل"، لم نختبر دفء المشاعر، العلاقات هناك قائمة على الحدود وفترة الأشخاص، لماذا لا يوجد أحد هناك يصرح بحقيقة مشاعره؟ بدأت يدها ترتعش وتنفست بعمق مرتين أو ثلاثاً شهيقاً وزفيراً قبل أن تكمل كلامها قائلةً:

- بعد تجربتي مع "أليكس"، تكونت لديّ مخاوف من أن ينتابني هذا الشعور، ثم جئت إلى هنا حيث أعطوني حريتي، فلا بهم ما ينقصني هنا وما لا يناسبني. فقلتُ لها:

- لم يكن بجانبنا شخص قادر على مساعدتنا ليوضح لنا كيف نتعامل مع الحياة عندما تكون بلا معنى.

فنظرت "ليلي" بطرف عيناها في تشكك وقالت:

- لكنك كنت بجانبني دائماً، لقد كنا نشعر ببعضنا دائماً.

قلتُ لها وأنا أشعل سيجارة وأحاول نفخ الدخان المتطاير منها ليصنع أشكالاً دائرية في

الهواء، إلا أن "أليكس" فقط يمكنه فعل ذلك:

- في بعض الأحيان لا أعلم حقيقة شعوري.

لم تكن "ليلي" تنطق اسم "أليكس" صراحةً، وكذلك الحال منذ زمن بعيد، وكأنه سر خطير

لا يُسمح لأحد أن يعرفه حتى إن "ليلي" نفسها تكاد تكتمه عن نفسها، حتى لا يعلم أحد أن

هناك علاقةً ما كانت بينهما. حيث كانت تقول "ليلي" عادةً: "هل هو هنا؟" "هل رأيته؟"

لدينا الكثير من الصور لهما معًا في إجازة أو في أثناء رحلاتنا، يتضح على "ليلي" فيها

شغفها بحبه، ويظهر خجلها وانكسارها في ابتسامتها أمام الكاميرا، كما يظهر تحفظ "أليكس"

وتقلص وجهه وتكشيرته المرسومة. وكان يمسك "ليلي" في الصور بشدة وكأنه يملكها أو كأنها

جزء من جسمه. حيث يضمها بذراعيه الطويلتين ومنكبيه العريضين ويحصرها بينهما مستغلًا

طوله الذي يقترب من المترين، كيلا يصل أحد إلى "ليلي" ولا يحدث لها مكروه، فهو يحميها.

قالت "ليلي" بصوتٍ منخفض:

- سألتُ "أليكس" ذات مرة عن أمنياته فأجاب: "أن تجدي من يحبك ويحبنى أيضًا". لقد

كان يضع نفسه دائماً في مأمن.

أخذت "ليلي" سيجارة من علبتي ونظرت إلى البيت لتتأكد أن جميع الأنوار مُطفأة وأن

عماتي جميعهن نائمات، ثم أشعلت السيجارة.

ثم أكملت قائلةً:

- لا أعلم لماذا كنا دائماً نتعامل بعنف مع بعضنا البعض، لقد كنا نعلم أننا نحب بعضنا البعض، ربما كنا نعتقد أننا لا نستحق هذا الحب، أو ربما أخطأنا في فهم هذا الحب، واعتقدنا أن الحب يتلخص في شرب الويسكي والتدخين والحديث عن الكتب أحياناً والخسارة المشتركة. ولكنه كان يتفهم دائماً أن الغضب والحزن لا يضيعان عندما يغيب الإنسان عن الأشخاص والأماكن. لقد أدرك كم يتكلف ذلك من طاقة، فلم أكن في حاجة إلى أن أشرح له. ولكن في النهاية، يجب أن يتمسك الإنسان ويُحيي الأمل في وجود ما هو جميل في الحياة، على الرغم من كمِّ المعاناة التي يواجهها.

فقلت لها:

- "أليكس" لم يخلط بين الحب والامتلاك.

فأومأت "ليلي" برأسها وقالت:

- بل لقد فعل ذلك، ولذلك كان يجب عليّ الرحيل.

سألتها:

- هل تفتقديه أحياناً؟

فأجابت:

- لم أعد أفتقده، أفتقد فقط أحياناً فكري عنه، أتفهمني؟ إنني أفتقد وجود

هذا الشخص الرائع المتألق الذي كان يُشغل تفكيري، أفتقد التفكير في هذا

الرجل المُحب خفيف الظل الذي كنت أُحبه، ثم أرى أمامي صورته الحقيقية التي لا يستطيع فيها التعامل مع عواطفه الشخصية أو عواطفه تجاه الآخرين، أرى أمامي شخصًا يتكلم دائماً فقط وقد تعلّم الاعتناء بالآخرين لكنه لم يتعلم الحب، شخص يتجنب الاستماع لمشاعره. لكنني أفتقد أحياناً تلاقئنا، ربما لأننا كنا نريد أن نكون لبعضنا البعض. إن الثمن غالٍ دائماً. ربما تكون علاقتي مع "رامي" غير قوية، لكننا نتفهم بعضنا البعض ونتوحد مع بعضنا البعض، وهذا أهم مما تتخيله.

كنت أعلم تماماً ما تقصده "ليلي"، فلم يكن "أليكس" يعتني بأشياءه قط، لذلك كانت تضع منه دائماً، كالهدايا التي لا يعيرها اهتماماً ويتعامل معها ببرود، فتختفي فجأة. وكان ذلك يغيظني دائماً لأنه لم يكن يعتني بـ"ليلي" أيضاً، ولأنني أُحمله مسؤولية رحيل "ليلي" فجأة بين عشية وضحاها، حيث حَزَمْتُ أمتعتها ورحلت وتركتني وحيداً مع "أليكس" وأشياءه التي تضع منه. أُحمله مسؤولية وجودها هنا وأنها بعد أيام قليلة ستتزوج وتنتقل إلى حياة جديدة ومختلفة تماماً ليس لي مكان بها.

سألتها:

- هل ودعته؟ هل يعلم أنكِ هنا وأنكِ ستتزوجين؟

فقلت:

- فكرت طويلاً هل يجب عليّ أن أكتب إليه؟ مراراً وتكراراً، أنت تعلم ذلك. لكنه لم

يبحث عني قط، لقد رحلت في أحد الأيام وهو تقبّل ذلك.

قلتُ لها:

- لم يكن يعلم أين يجديك.

فقلت:

- إنه شيء سخيّف، كان يمكنه أن يكتب إليّ أو أن يسألك، فأنت تعرف رقمي في أي مكان

أذهب إليه. هل سألك؟

هزرتُ رأسي بلا، وأومأت "ليلي" برأسها وقالت:

- اعتقدت طويلاً أن رحيلي لا قيمة له عنده، كنت أفحص يومياً الإيميل والبريد وتليفوني

الألماني، ولم أجد شيئاً، ثم تقبّلتُ انقطاعنا عن بعضنا البعض؛ لأنه لم تكن هناك محادثة بيننا

بأي طريقة. ومع الوقت، بدأ يصغر في نظري ويقولُ. ثم فكرت لماذا يجب عليّ أن أترجع عن

ذلك، فأنا أعلم رد فعله.

كنتُ أعلم أنها مُحقة، فمنذ انتقال "أليكس" إلى مسكنٍ آخر، لم يتواصل معي، وقبلها

كنت قد ضبطته في مرة وهو يقرأ أحد كروت البريد الذي أرسلته "ليلي" إليّ وكان موضوعاً

على الكومودينو في مدخل الشقة بين كومة من كروت البريد. قرأ الكارت فقط ووضع في

مكانه. تخيلت أنني رأيت الحزن على وجهه، ولكنه كان مجرد تخيل لأنني تمنيت أن يرى هو

و"ليلي" الحزن الذي يسببانه لبعضهما البعض.

قالت "ليلي" بالعربية:

- اذهب للنوم يا أخي، فغداً تنتظرُك أشياء جميلة، كالشمس والأكل والضجيج، وعندما

يهر هذا الوقت، ستفتقده كثيراً، أنا أعني تماماً ما أقوله لك.

أخضر



أصبح الجو بالخارج أكثر دفئًا، حيث كان تساقط الثلج قد توقف قبلها بأسابيع قليلة، وأصبحنا نذهب إلى المدرسة بأحذية رياضية، وتوقفنا عن ارتداء البوت والمعاطف السميقة.

كنّا نقضي الإجازات الأسبوعية بشكل شبه دائم في حديقة جدّينا. بدأت "باربرا" العمل في أحد المستشفيات، حيث تعمل في بعض الأحيان ليلاً، وكانت تقول إننا في حاجة إلى المال.

تقع الحديقة بين عدد كبير من الحدائق الصغيرة، وخلفها الشارع الكبير المؤدي إلى محطة القطارات. وكانت الطرق بين البيوت من الحصى والزلط،

لذلك لم يكن بإمكاننا ركوب العجلات، كما أن الحقائق الأخرى كانت مُحاطة بأسوار ولا يوجد أي أطفال آخرين.

بنى جدي بيتًا صغيرًا في الحديقة كنا نبني فيه أحيانًا، وكانت جدتي تجلس على كرسي الحديقة البلاستيك في ظل البيت دائمًا وهي ترتدي مريلة وتُعلق منديلًا قماشياً في فتحة الصدر وتقطع الفاصوليا أو أي نوع من الخضار أو تقشر البطاطس في وعاء بلاستيك كبير. كانت "ليلى" تجلس بجانب حوض الزرع ومعها الجاروف وتدفن شتلة زرع وتُخرجها مرة أخرى، وتسقي الزرع مرات عديدة وتطرق بيدها على الأرض وتمسح برفق على أوراق الشجر. كنت أجلس غالبًا على قطعة حشائش رقيقة ألقب صفحات مجلة كرة القدم الخاصة بجدي، ولم أكن أعرف أسماء الفرق ولا اللاعبين، إلا أن زملائي الآخرين في الفصل كانوا يعرفون أسماءهم جميعًا ويرتدون القمصان الخاصة بهم في حصة الألعاب، وفي الشتاء، يضعون الكوفية الخاصة بالفرق سواء كانت الزرقاء والبيضاء أم الصفراء والسوداء أم الحمراء والبيضاء.

وكان في الحديقة بيت للطيور قد بناه جدي بجانب البيت. ففي إحدى المرات في الصيف، عندما كنا نقضي الإجازة في ألمانيا قبل أن نعود مجددًا إلى بيتنا، كان بيت الطيور ما زال مكشوفًا وقد بُنيت قاعدته فقط، لذا فبين الحين والآخر، كان أحد الطيور أو العصافير يذل طريقه ويأتي إلى هنا ويأكل من الحبوب التي كنا نضعها فيه.

كبرت نباتات البيت، واخضرَّ نبات اللبلاب، وأصبح البيت شبه مخفي بين أوراق الأشجار باستثناء السقف الذي يمكن رؤية ألواحده، إلا أن الطيور كانت تعرفُ

مكانه، حيث تطير إلى نبات اللبلاب ويزيحون أوراقه ليبحثوا وراءها عن الطعام. كانت "ليلي" تحمل فتافيت الخبز وتلقيها على أوراق النباتات وعلى سطح البيت، ثم تستند إلى حوض الزرع وتنتظر حتى تجد العصافير والطيور طعامها.

كنا نأكل كعكة الفراولة أو كعكة التوت أو كعكة الجبنة التي تُحضرها جديتي معها، كما يُسمح لنا أن نشرب معها فنجانًا صغيرًا من القهوة بالحليب ونأكل كعك الفانيليا. سقط أحد الدبابير للمرة الأولى على حافة الطبق فسألت "ليلي": "ما هذا الحيوان؟ فلم نكن في وطننا الأول نعرف الدبابير".

كنتُ أسير مع جدي في الحديقة في أحد الأيام بعد الظهر، في حين كانت "ليلي" وجديتي يُخرجان أكياسًا بلاستيكية من السيارة، حيث كنا قد أحضرنا السلطات ونريد بعد ذلك شَيَّ "الهوت دوج" وخَبَزَ البقسماط.

تجمَّع بجانب بيت الطيور سربٌ من الذباب وتعالى صوته، وعندما اقتربتُ منه، طاروا جميعًا ورأيت طائرًا صغيرًا ميتًا على الحشائش، عيناه مغلقتان ومنقاره مفتوح وقدماه مغلقتان في الهواء كأنه سقط من سطح بيت الطيور. جلست بجانبه على الحشائش ودفعته بإصبعي لكنه لم يتحرك. خرجت ذبابتان من جثته عندما حركته، وطارتا بعيدًا.

سمعت صوت جدي على بوابة الحديقة ينادي على جديتي ويخبرها أنها يجب أن تقفل السيارة.

وقفت وجريت باتجاه بوابة الحديقة حيث يقف جدي الذي غادر البوابة وسار في الشارع الممتلئ بالحصى، وكذلك فعلت "ليلي" أيضًا. دخل الحصى في صندلي البني وبين أصابع قدمي، وكانت حواف الزلط تنغزني في باطن قدمي.

قلت لـ "ليلي" حين وقفت أمامها:

- ليلي! أعطني أليكس وانتظري هنا، حسنًا؟ يجب أن أفعل شيئًا.

فنظرت إليّ بعينيهما الواسعتين وأومأت برأسها في صمت وأعطتني أليكس ورجعت

خطوتين إلى الخلف، فقلت لها:

- سأتي حالًا وأصطحبكِ معي، لا تتحركي من هنا. حسنًا؟

جريت إلى داخل الحديقة وحملت أليكس و"الهوت دوج" وأخذت جاروف "ليلي"

الموضوع في حوض الزرع، ووضعت جثة الطائر على الجاروف وذهبت بها خلف البيت

ووضعتها على كومة من الأعشاب حتى لا يزعجها الذباب مرة أخرى، وغطيته بأوراق شجرة

التفاح. وضعتُ حول كومة الأعشاب بعض الحجارة ونثرت بعض الأعشاب على جثة الطائر،

وبذلك فلن تلاحظ "ليلي" شيئًا ولن تفرزع، وأيضًا سترقد جثة الطائر في سلام.

عدتُ إلى الشارع الممتلئ بالحصى أمام الحديقة، ورأيت كيف تحاول جدتي أن تأخذ

"ليلي" معها إلى داخل الحديقة، إلا أن "ليلي" كانت تنظر إليها وتهز رأسها بلا وتضم يدها إلى

صدرها. وعندما رأتهني ألوح لها، هزت رأسها وتحركت باتجاهي.

قالت جدتي:

- هل يمكن أن يشرح لي أحد ماذا يحدث الآن؟

فأجبته:

- لا شيء، كان يجب أن أفعل شيئًا سريعًا.

مكة



ذهبنا إلى مكة، حيث قال عمي "خالد" إننا يجب أن نفعل ذلك:

- لازم، العائلة هناك تريد رؤيتك.

كما قال إنه من المهم قبل حفل الزفاف أن نزور الحرم ونسأل الله البركة والمعونة. كان

أحد أعمامي ما زال على قيد الحياة في مكة حيث يعيش مع زوجته وأولاده وأحفاده، وكانت

الشقيقة الوحيدة لأبي وعمي "خالد" - عمتي "سلمى" - قد ماتت منذ سنتين.



كانت زيارة مكة في طفولتنا ثقيلة على قلوبنا، حيث كنا نريد حتى آخر لحظة تعطيل زيارة العائلة. وفي إحدى المرات، ادّعت "ليلي" أنها متعبة وهي في طريقها لركوب السيارة حتى لا تذهب معهم. كانت مكة تمثل لنا ونحن في جدة عالماً آخر، الشقق فيها صغيرة وبسيطة والحجرات راثحتها كريهة. لم يكن في بيت عمي "خالد" فصل بين الذكور والإناث، حيث يجلس الرجال في الصالون الكبير تماماً كما تفعل السيدات ويلعبون الكوتشينة ويدخنون الشيشة.

إلا أن الأمر في مكة لا يمكن تصوّره، حيث كان يجب عليّ وعلى "ليلي" أن نفترق عند مدخل بيت عمي "فيصل"، فكنت أصعد مع أبي عبر سلم خارجي إلى التراس حيث يتجمع الرجال حول شيشة صدئة. وكانت "ليلي" تنظر إليّ دائماً في تشكُّكٍ وهي ممسكة بيد "باربرا" وتختفي وراء الباب إلى غرفة المعيشة. وفي وقت لاحق تقول "ليلي":

- إنهم جميعاً مضحكون يا "باسل"، فالفتيات لا يرفعن حجابهن، ووسائل المقاعد مبللة، كما أن لديهم لُعباً غبية، بالإضافة إلى أنني يجب أن أكل جميع الحلوى المثيرة للاشمئزاز. أتعرف هذه الحلوى ذات الغلاف البمبي التي تلتصق في الفم وطعمها كورق الكرتون؟ إن عمتي "بسمة" تضعها في شنطة يدها وترميها في الشارع قبل أن تركب السيارة، لقد رأيت ذلك آخر مرة.

كنتُ أشارك "ليلي" انزعاجها، فحتى بالأعلى عند الرجال، يكون المجلس كئيبيًا، فأولاد عمي في جدة لديهم أحدث ألعاب الكمبيوتر، وكنا نلعب في الفناء كرة القدم أو الاستغماية. وفي جدة، يجلس الأولاد ملتصقين في آباؤهم ويُحرِّكون السُّبحة

المصنوعة من الزجاج أو الكهرمان ولا يتحدثون مع بعضهم إلا نادراً. وأحياناً يكون مع أحدهم كوتشينة ولكنهم لا يتفقون على لعبة واحدة يريدونها، فنظل جالسين بجوار بعضنا البعض في صمت، كما توجد مشروبات مثل عُلب ميرندا برتقال أو الكولا كثيرة السكر التي يختلف طعمها عن تلك التي في بلدنا.

كان تراس السطح مفروشاً بسجاد قديم، والخدم الباكستاني يحضر كل ساعة ومعه جردل شاحب اللون ممتلئ بالفحم لإشعال الشيشة من جديد. وفوق التراس، توجد ناموسية لإبعاد الحشرات والشمس وحجب رؤية البيوت المحيطة. كُنَّا نسمع صوت الأذان القادم من الحرم في تلك المدينة القديمة وهو قادم من وراء الهضاب المتشابكة، حيث يعلو صوت المؤذن لعدة دقائق ويتضح من بين الأسطح وهو يدعو إلى الصلاة. أتذكر أن هذه اللحظة كانت اللحظة المبهجة الوحيدة في بيت عمي "فيصل".



انطلقتُ من جدة بصحبة عمي "خالد" الذي يقود السيارة و"ليلى" وعمتي "بسمة" اللتين تجلسان في الخلف. كانت السيارة "اللكزس" ما زالت جديدة، ودواسة السيارة ما زالت مغلقة بالبلاستيك والتابله يلمع وكأنه من خشب الماهوجني اللامع. كما كانت اللوحات على الطريق مكتوباً عليها "مكة المكرمة" ومرسوماً بجوار الكتابة شكل الكعبة. بدأت المدينة من حولنا تختفي شيئاً فشيئاً، وبدأنا نسير بين الصحراء، حيث الصخور المترامية على اليمين واليسار. وبعد نحو نصف ساعة، مررنا بقاعدة عسكرية.

قبل مدخل مكة، افترق الطريق السريع إلى أربع حارات، ولا أعتقد أن الطريق في الماضي كان بهذا الشكل، حيث لم تكن به أي عوامل أمان. كما توجد حارة منفصلة للباصات تقف فيها باصات الرحلات وتنتظر، وكان الطريق أمامنا مزدحمًا.

سألنا عمي "خالد":

- هل معكما جواز السفر؟

التفتُّ إلى "ليلي" ونظرت إليها متشككًا. ولم تكن "ليلي" ترتدي الشال الفاتح المنبسط على رأسها دون أن تقوم بلفه، وإنما كانت ترتدي عباءة سوداء بحجاب كامل، وتحتة بندانة حجاب لامعة بيضاء تشد الشعر بأكمله ابتداءً من الجبهة حتى إنه لم تبقَ خصلة خارج الحجاب، كما أنها أغلقت العباءة حتى رقبتها. وضمت يد عمتي "بسمة" بين يديها، وكانت عمتي أيضًا تلتفتُ بالكامل في الثوب الأسود. كنت أرى أمامي "ليلي" أخرى تختلف عن تلك التي تجلس معي في المطبخ بلبس صيفي أزرق ونشرب الويسكي معًا، وفي المقابل، كنت أنا سعيدًا بالجلابية والعُترة.

قالت "ليلي":

- أنت تعرف بالتأكيد أن مكة يدخلها المسلمون فقط، لذلك فهم يفحصون جوازات السفر عند مدخل المدينة. إنها مجرد نقطة تفتيش.

نظر أفراد الأمن تجاه سيارتنا وأشاروا لعمي "خالد" بالتوقف. في هذا الوقت، بدأت الشمس تشرق وتحولت السماء إلى اللون الذهبي مع الجو الممتلئ بالتراب. وكان أحد الشوارع الجديدة بعد نقطة التفتيش بقليل يؤدي مباشرة إلى الحرم، ووجدنا أمامنا بوابة عملاقة من الفولاذ والرخام تمتد إلى جانبي الشارع بحاراته المرورية الست ومكتوب عليها بعضاً من آيات القرآن. كما أن حواف الشارع مزروعة بالورود والأزهار، وفي أحواض الزرع، تلعب القطط الضالة الهزيلة. بحثت عن أي علامات عن المدينة القديمة التي قضينا بها طفولتنا، ولكنني لم أجد لها أثراً.

كانت السيارات تتحرك ببطء شديد، كما يتجول الشحاذون من الرجال والنساء بين السيارات ويطرقون على الزجاج ويمدون أيديهم يطلبون حسنة، وبعضهم يبيع عبوات من مناديل الجيب أو اللبان أو سلاسل الورد. أنزلت "ليلي" زجاج السيارة وأعطت واحدة من هؤلاء بعض المال.

فقال لها السيدة:

- الله يخليكي يا اختي، الله يباركك.

أعطت السيدة لـ"ليلي" عقداً من الياسمين وهي تنحني وتهتز بأعلى جسمها، فشكرتها "ليلي" وردت لها الدعوات بالبركة، في حين نظرت أنا إلى الدواسات الزرقاء بالسيارة.

ظهر أمامنا برج الساعة، كما كان يظهر أيضًا في الإعلام الألماني. يبلغ ارتفاع البرج بضع مئات من الأمتار، ويقع في مركز مجمع فنادق ومراكز تسوق، وبالقرب من المسجد الحرام. أما عن الساعة نفسها، فهي من مجموعة رولكس، كما توجد كتابة باللون الذهبي على وجه الساعة.

كانت باصات الرحلات التي رافقتنا في نقطة التفتيش قد وصلت للتو إلى الجراج الواقع أمام الحرم. نزل منهم المئات من الآسيويين والأفارقة والعرب وجميعهم يبدو مظهرهم فقيرًا، حيث يلتفون في حجاب أبيض أو رداء أبيض، واتجهوا جميعًا إلى الفناء الكبير أمام الحرم. كانوا يحملون أكياسًا بلاستيكية أو صناديق تبريد، وبعضهم يرتدون حول رقبتهم شريطًا ملونًا لتسهيل تمييز أعضاء الرحلة الواحدة. وكنت أتمنى في تلك اللحظة أن أرى امرأة شقراء ترفع شمسية فوق رأسها. اعتقدت أن "أليكس" كان سيعجبه هذا المنظر لو كان معنا، وتساءلت إن كانت "ليلى" تفكر فيه أيضًا.

سلم عمي "خالد" السيارة "اللكزس" لأحد حراس الأمن في الجراج وأخذ تذكرة وقوف سيارة ثم دخلنا المسجد وسط مجموعة من الحجاج الماليزيين. قال عمي "خالد":

- علينا أن نبحث عن "عمر" أولاً، إنه سينتظرنا.

كان يتحرك أمامنا بحيوية ونشاط، حيث تحولت عصا المشي الخاصة به ذات المقبض النحاسي إلى مجرد إكسسوار فقط.

اختلف المكان تمامًا عمّا أتذكره أيام طفولتنا، حيث تتزين المدينة بالأنوار، كما تجد كل بضعة أمتار لافتة تشير إلى "كنتاكي" أو "ماكدونالدز" أو "ستاربكس". كان برج الساعة يلقي بظلاله على المآذن، وفي كل مكان حولنا، يُخرج الناس التلفون ويصورون أنفسهم أمام أعظم مكان مقدس في الإسلام. تقف السيدات اللاتي تحملن شنطاً ماركة "لوي فيتون" ونظارات شمسية ماركة "كافالي" بجانب السيدات الباكستانيات الراكعات ذوات الحجاب المشجّر ورسم الحنة على الوجه.

حاولت أن أتواصل مع "ليلي" بالنظرات، إلا أنها كانت تضع ذراعها حول ذراع عمتي وتسندها ويتحدثان معاً في هدوء. رأى عمي "خالد" "عمر" وبدأ يُسرع الخطى مرة أخرى.
قال لي "عمر":

- يا باشا، هيئتك جميلة جدًّا يا ابن عمي، اذهب بعد ذلك إلى العمل في ألمانيا بهذه الهيئة، لقد صنعنا منك رجلاً سعودياً مثاليًّا.
ثم طرقت على كتفي وأكمل:
- تعال، سنأخذ صورة.

وأخرج التلفون الخاص به من جيبه العلوي ووضع يده حولي، ومدَّ اليد الأخرى للأمام بعيداً، وسلَّط الكاميرا علينا واضعاً المئذنة في الخلفية، وقال:

- قل "الله!!" رائع جدًّا، سأُنشرها على الفيسبوك ويمكنك بعدها أن تجعل أصحابك في

ألمانيا يشاهدونها.

مشينا على مهل فوق الرخام المضئيء في اتجاه المدخل الرئيس للمسجد، حيث تجمع

العديد من الباعة في كل مكان حولنا يفتشون الأرض بمفارش ويبيعون مشروبات ومصاحف

وألعاب وبلالين ملونة. شعرت أنني في كنيسة "هامبورج" ولا ينقصها سوى لعبة "قطار

الموت". افترقنا عند المدخل عن "ليلي" وعمتي "بسمة" اللتين ذهبتا إلى الجزء المخصص

لل سيدات لأداء الصلاة. وكان الناس يتدافعون على يمين أعمدة المسجد ويسارها للوصول إلى

الماء، كما أن المئات من الأكواب البلاستيكية ملقاة على الأرض.

قال "عمر":

- تعال، سنملأ ماءً من زمزم.

يعدُّ ماء زمزم ماءً مباركًا يشفي الأمراض جميعها.

قال عمي "خالد":

- إن زوجة الأمير "نايف" قد أصيبت بالسرطان في العام الماضي، وظلت تشرب فقط من

ماء زمزم مدة أربعة أشهر، والآن شُفيت تمامًا، الله أكبر، الله أكبر.

أومأ لي "عمر" وأعطاني زجاجة بلاستيكية فارغة وهمس قائلاً:

- حتى لو لم تكن مريضاً، ستحتاج وأنت في داخل الزحام أن تشرب شيئاً، آسف، أنا أيضاً أفضل شرب البيرة، ولكن إن شربتها هنا فستصيبك اللعنة.



ظهر الفناء الفسيح للمسجد خلف الأعمدة. وتذكرت عندما كان أبي يصطحبني إلى هنا كثيراً، حيث نلّف حول الكعبة السبعة أشواط المفروضة علينا، وكان يمسكني في يده حتى لا أضيع منه وسط الزحام، كما كنّا في نهاية كل زيارة نذهب إلى المشواة في المدينة القديمة، حيث يُعلّق اللحم البقري على سيخ فوق النار ليتم طهيهِ ببطء ويتم تقطيع جزءاً تلو الآخر من اللحم ومُملأً به أرغفة الخبز العربي.



تحدث عمي "خالد" مع شابٍّ ملتجٍ، وقال "عمر":
- إنه الإمام الذي يقرأ القرآن في الصلاة وأنت تستمع له.
هزّ الرجل يد عمي "خالد"، ثم قاما بتغيير بعض العملات بشكل غير لافت ثم أشارا إلينا باتباعهما، فقال "عمر":
- هيا بنا.

دخلنا وسط الزحام المحيط بالكعبة. قال رجلٌ أمامنا بصوت واضح عالٍ وهو يرفع يديه بالدعاء:

- الحمد لله رب العالمين.

وكان الناس يتوافدون إلى الكعبة في ازدياد، وبعضهم يلتقطون الصور ليتذكروا تلك اللحظات وليرى العالم الافتراضي تدينهم، وآخرون يهمسون بصوت لا يسمعه غيرهم ويزيحون الناس عن طريقهم ليصلوا إلى الكعبة، والكل يريد أن يلمس كسوة الكعبة السوداء. لم أكن قد فكرت في ربي منذ زمن بعيد أو لم أفكر فيه مطلقًا، لكنني فعلت ذلك في الأيام الأخيرة. سمعتُ سيدة عجوزًا في السبعين أو الثمانين من عمرها وجلدها مجعّد وبني اللون ولم يتبقّ من أسنانها سوى اثنتين في الصف السفلي، ويحملها رجلان على حامل أمام الكعبة، وكانت تقول:

- مالك يوم الدين، إياك نعبد...

ومدت يدها إلى أعلى وبكت وتهدت بصوت عالٍ وكأنها تعاني ألمًا عظيمًا، وقالت:

- يا الله، يا الله، الله أكبر.

وفي اللحظة نفسها، سار في اتجاهي رجل يرتدي جلبابًا قصيرًا كالأصوليين، وتصل لحيته تقريبًا إلى بطنه، كما يرتدي على رأسه غترة دون عقال. كان الرجل يحملق أمامه، ولم ينتبه أنه اصطدم بكتفي وكتف "عمر"، وكان يردد القرآن بصوت غير مسموع. كما رأيت بطرف عيني فتاتين لم تتجاوزا العشرين، ترتديان حجابًا لامعًا، وكانتا تتهقهان وتصوران الملتحين.

غابت الشمس وبقيت حرارة الجو الشديدة، كما كنا نشم رائحة العرق وسط الزحام الذي أشعرتني بالرغبة في النوم وكأنني سأدخل في غيبوبة، كما كانت الساعة الرولكس تلمع من فوقنا في البرج كأنها البدر.

أخذنا نطوف حول الكعبة، ونردد الدعوات، وكنتُ بين الحين والآخر أشربُ من الماء المبارك البارد الذي يمتلئُ طعمه بالكلور. وفي آخر الأشواط، أعطى "عمر" مرة أخرى للإمام بقشيشًا، وودعناه واتجهنا في ببطء إلى باب الخروج.

قام "عمر" بإشعال سيجارة بالخارج للمرة الأولى، كما اشترى عمي "خالد" من إحدى الفتيات جوزة هند. وبعد ذلك بوقت قصير، جاءت "ليلي" ومعها عمتي "بسمة" من المسجد، وقامت عمتي "بسمة" بتوجيه الشتائم لـ"عمر" بسبب السيجارة وأخذتها من يده وألقفتها على الأرض الرخامية، وقالت له وهي تضربه على كتفه:

- اخجل من نفسك، هل تعلم عدد الناس بالداخل الذين يدعون الله أن يرزقهم الصحة والعمر الطويل، وأنت تقف هنا أمام بيت الله وتقتل نفسك؟! عار عليك!

ركبت "ليلي" السيارة مع عمي "خالد" وعمتي "بسمة"، وركبت أنا مع "عمر"، وذهبنا جميعًا إلى بيت عمي "فيصل" حيث كانوا ينتظروننا على العشاء. سرنا في حارات ذكرتني بطولتنا، حيث البيوت المتصدعة المكوّنة من

طابق ونصف، والبوابات الفولاذية التي تقشّر لونها. وكان الطريق غير ممهد وبه حُفر كأنها فوهة بركان. سرنا في منحنيات صعودًا وهبوطًا بين هضاب مكة، وداس "عمر" مرة أو مرتين بشدة على الفرامل حتى لا يصطدم بأطفال يرتدون بناطيل مقطعة ويلعبون الكرة أمام السيارات.

كانت هيئة البيت هي نفسها منذ عشرين سنة، فلم تزدد هيئته إلا تواضعًا، وسَلَّمه المؤدي إلى مدخل البيت من الحجارة الهشّة. وكان عمي "فيصل" ينتظرنا متكئًا على عصاه يسنده شابٌ في سنِّ "ليلي". أعتقد أن عمي "فيصل" يبلغ من العمر أكثر من تسعين عامًا، فهو من الناس الذين لا تتذكرهم أبدًا إلا وهم في سن متأخرة. وعلى العكس من عمي "خالد"، فقد كان عمي "فيصل" نحيفًا وهزيلًا في جلاببه الأبيض ولحيته البيضاء.

تقدمت "ليلي" وعمتي "بسمة" إلى الأمام، حيث سلمت عمتي على عمي "فيصل" بشكل سطحي، كما عانقت "ليلي" عمي وقبّلت جبينه، وقال لها في صوت متقطع:

- يا عروسة، ما شاء الله.

كما حيّا "عمر" عمي في احترام، وقبّل يده وعانقه عناقًا قصيرًا، وقال له:

- يا عمي، هذا "باسل" ابن عمو "طارق"، أتتذكره؟

أقبلت على عمي ومددنا أيدينا في تردد، وترك عمي عصاه تقح على الأرض واتكأ عليّ وهو يعانقني وقال:

- طبعًا، ما شاء الله، "باسل" ابن أخي، حمدًا لله على السلامة، أهلاً بك في البيت.
أردتُ أن أنحني لألتقط العصا ولكنني كنت بطيئًا، فقد قام الشاب الواقف بجواره
بفعل ذلك قبلي وابتسم لي وأدخل عمي إلى داخل البيت، وفي أثناء مروره بجواري مد لي يده،
وقال:

- أهلاً، أنا "محمود" ابن عمك، أهلاً بك في البيت، تفضل بالدخول.

للمرة الأولى في حياتي، لم أصعد السلم الخارجي للبيت أو السطوح، وكان وراء الباب
الممتلئ بالثقوب الذي تقشر لونه ممر صغير، كما أعماني الضوء الساطع من المصباح النيون.
أجلس "محمود" عمي "خالد" على كرسي متحرك كان موضوعًا بجوار الباب مباشرة.

قال "محمود" لعمتي "بسمة" و"ليلى":

- عمتي، يمكنكم الدخول إلى الصالون بالداخل، حيث أعدت أُمي والآخرون الشاي.

ثم أكمل:

- يا "عمر" انتظروا هنا لحظة أخرى، فقد قالت "هبة" إنها تريد أن تسلّم على "باسل".

نظرت إلى "عمر" متسائلًا، فهمس لي قائلًا:

- "هبة" بنت عمتي "سلمى" رحمها الله.

خرجت امرأة من الباب الذي دخلته "ليلى" وعمتي "بسمة" قبل ذلك بقليل، وكانت ترتدي عباءة سوداء وحجابًا بنيًا وتضع ماكياجًا خفيفًا وعيناها حمراوين. توجهت نحوى وبكت بحرارة وعانقتني، وقالت وهي تنتحب:

- يا حبيبي يا "باسل"، حمدًا لله على السلامة، مرحبًا بك في البيت، ليت أمي كانت على قيد الحياة في هذه اللحظة.

ولعبت بخدي ثم عانقتني مجددًا. كان جسدها الصغير يرتعش بين يدي، ولم يكن يبلغ طولها ذقتي، كما أن دموعها تركت أثرًا في جلبابي. وأكملت قائلة:

- كان أبوك أقرب شخص لأمي يا "باسل"، لقد كانت تبكي دائمًا تقول إنها تتمنى رؤية أبنائه، ثم جاءت "ليلى" إلينا وظلت أمي تبكي لأيام طويلة وكانت تقول دائمًا: "طفلة أخي العزيز عادت إليّ، أريد رؤية ابنه أيضًا".

وتركت "هبة" عناقي ومسحت عينيها وأنفها بكُم عباءتها، ثم ضمتني مجددًا وبكت على صدري، وقالت:

- الآن تجتمع أمي مع أبيك، وهما الآن سعيدان لأننا أيضًا مجتمعون.

شعرتُ بغصة في حلقي وارتعشت يداي، ومسحت بيدي على رأس "هبة" دون أن أعرف إن كنت قد خالفت بذلك قواعد السلوك أم لا، ورأيت بطرف عيني "عمر" ضاحكًا ويحاول أن يداري ذلك.

أكلنا جميعًا مع رجال العائلة خروفًا مطهؤًا وأرزًا وسلطة على السطوح كالسابق، إلا أنه لم يعد سقفه مغطى بناموسية، بل بشمسية. وبعد الأكل، لعبنا الكوتشينة وشربنا الشاي وانصرفنا. اتكأ عليّ عمي "فيصل" وهو ينزل السلم وأعطاني في خفية ظرفًا، وأردت أن أرفض ولكنه قال:

- شششش، أنت ابن أخي، إن شاء الله تجد عروسًا قريبًا وتتزوج مثل أختك.

كانت رحلة العودة في سيارة "عمر" مليئة بالصمت، وكان "عمر" يدخل السيارة تلو الأخرى، وسمعت صوت عمتي "بسة" تتصل به من السيارة الأخرى وتقول له إنه يجب أن يتوقف عن التدخين في أثناء القيادة لأن ذلك خطير، كما وجهت له الشتائم عبر التليفون. أما أنا فاتكأت وأغلقت عيني.



طارق



كان في الثامنة عشرة من عمره عندما أعطته أمه الخطاب. لم تعد أمه "خديجة" صغيرة السن، فقد أنجبت تسعة أبناء بقي منهم سبعة على قيد الحياة، وكان زوجها كبير الخياطين في مكة. كما أنها زوّجت بناتها جميعاً زيجات جيدة واختارت لأولادها الذكور زوجات جديرات بالاحترام. تحمّل ابنها الكبير مسؤولية محل أبيه بحكم العرف وهو ما جعلها فخوراً به. وكان "طارق" أصغر أبنائها والأقرب إلى قلبها، فكانت تحكي عنه أنه كان حنوناً في صِغَره ولديه عيان ممتلئتان بالحزن حتى إنها كانت تخشى من أنه ربما

أصابته "العين" بسوء. وكانت تقف دائماً مع أخواتها أمام سرير الأطفال وتدعو الله وتتضرع إليه أن يحمي هذا الطفل الصغير.

اعترف لها في خجلٍ وبصوت منخفض وهو في التاسعة أو العاشرة بأنه يُصاحب "كمال" بائع الجرائد كبير السن في الحارة المجاورة. فقال لها:

- يا ماما! عم "كمال" أعطاني كتباً أحضرها معه من مصر.

وعرض لأمه كتاباً صغيراً ممزقاً به روايات هابطة لا ضرر منها، وقصص قصيرة عاطفية، ومجلدات مصورة عن الحيوانات والمناظر الطبيعية الأجنبية، وكل ذلك كان قد أهدها له صديقه الجديد "كمال". لم يكن والد "طارق" يولي القراءة أي أهمية أو يملك كتاباً، غير قراءة القرآن، وكان يريد أن يرسل ابنه الصغير للجيش، حيث قال:

- هناك سيصبح رجلاً، وسيعود ذلك عليه بالنفع.

كان "طارق" يخبئ مكتبته الصغيرة في كرتونة قديمة تحت السرير لا يعلم أحد عنها شيئاً سوى أمه وأخيه "خالد".

وكان أخوه يحميه في الشارع من الصبيان في مثل سنه الذين يتمتعون ببنيان قوي وقلبٍ قاسٍ، كما يساعده في واجباته حتى أصبح "طارق" نفسه أسرع منه في عملها، حينها قال له أخوه "خالد" إنه يجب عليه مواصلة دراسته وأن ذلك هو الطريق الصحيح له.

أرسل "خالد" شهادات أخيه سراً ومرفق معها خطاب إلى وزارة التعليم كخطوة على طريق الحصول على منحة دراسية بالخارج، يسافر بموجبها من وقع عليهم الاختيار إلى أمريكا أو إنجلترا أو ألمانيا للدراسة. وبذلك ظل الأمر مُتوقفاً على اختيار الوزارة. وكان أكثر من يتم اختيارهم من الأطباء والمهندسين، والشرط الوحيد هو أن يعود الدارس بعد إتمام دراسته إلى بلده ليقدم معرفته في خدمتها.

كان الخطاب الذي أعطته أمه له يتضمن موافقة وزارة التعليم على طلبه، حيث قالت له عندما رأته لا يفهم شيئاً ممّا حدث:

- أخوك فعل ذلك لك، إنه عفريت، ليس لي في الدنيا سواكما.

وبكت أمه، وفهم "طارق" أنه يجب عليه ترك العائلة قريباً. ولم يكن أبوه متأكدًا أن البلد الأجنبي سيكون جيداً بالنسبة لابنه، لكنه وافق عند عودته إلى المنزل لأن أصدقاءه على القهوة وجهوا إليه التهنية لأن ابنه سُنَادَى فيما بعد بكلمة "دكتور"، حيث قال أبوه بعد عودته:

- ربما تجعل الغربية من "طارق" رجلاً أيضاً.

صنع له أبوه عشر بدل وقمصاناً بيضاء وجواكت ثقيلة. كان قد رأى أشكالها في إعلانات السينما يرتديها "عادل إمام" و"عمر الشريف". كما كان الأب راضياً كل الرضا، وفوّض زوجته أن تبحث لابنه الأصغر في أثناء سفره عمن تستحق أن تكون الزوجة المستقبلية للدكتور.

جمّع الإخوة مالهم، واشتروا لأخيهم الصغير شنطتي سفر مصنوعتين من الجلد، كما طلبت منه أخته "زينب" أن يجلب لها أسطوانات للمغنيين "إلفيس بريسلي" و"بودي هولي".

في يوم السابع من يناير عام ألف وتسعمئة وثمانية وستين - قبل أيام من عيد ميلاد "طارق" التاسع عشر - أوصل "خالد" أخاه "طارق" بشنطتي السفر الجلديتين وتسريحة الشعر الجديدة إلى المطار الجديد بجدة. وكان يرتدي بدلته التويد الجديدة التي أغرقها بعرقه، كما حاول أن يثبت في ذاكرته صور مدينته التي كبرت حوله وبداخله في السنوات الأخيرة، حيث الحارات الضيقة المتصدعة التي قضى بها طفولته، وبيوتها المائلة المصنوعة من الحجر الرملي والشبائيك ذات المشربيات المتهاككة، ثم تغير ذلك بشكل كامل وسكنوا في البيوت العالية المبنية على الطراز الأمريكي الذي يتميز بالواجهات المصقولة الفاتحة والشبائيك الحديثة التي ركبها أبوه في بيته قبلها بشهور قليلة. كما أصبحت المحلات في المدينة القديمة تباع الساعات اليابانية والراديو، وكافيتريات المدارس تباع في السنوات الأخيرة الكولا في زجاجات صغيرة منتفخة. كما حلت الأكشاك الصغيرة الخضراء محل أكواخ الصفيح التي استخدمها الباعة الجائلون وفي يوم وليلة، ظهرت فجأة عشرة صناديق قمامة زرقاء في الشارع الطويل أمام بيته، بمعدل صندوق كل مترين، وزاد ازدحام السيارات لأن كل شخص أصبح بإمكانه شراء سيارة، وقامت الوزارة بإنشاءات على الطرق جعلت الحارات المرورية في الطريق ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً. وللمرة الأولى، لفت انتباه "طارق" أنه لا يعلم شيئاً عن

البلد التي سيعيش فيها سوى معلومة واحدة وهي أن المصانع الألمانية كـ"مرسيدس"
و"فولكس فاجن" أشهر من مصنع "تويوتا" الياباني.
قال "خالد" وهو يحتضن أخاه بقوة في المطار:
- الله معك يا أخي.

بقي "طارق" في ألمانيا اثنتي عشرة سنة أصبح خلالها يجيد اللغة الألمانية بطلاقة، إلا أنه
كان ينطق حرف الـ"R" بشكل مبالغ فيه. كما عاش في السكن الجماعي مع طلاب آخرين
وكان يطبخ الأكلات التي تعلمها من أمه، كالأرز مع الفراخ والطماطم والقرفة، كما افتقد
البامية والباذنجان اللذين لم يكن يسمع أحد عنهما في ألمانيا في السبعينيات إلا القليل، كما
افتقد أيضًا الشاي الأسود الثقيل مع النعناع الطازج. كما تعلم الرقص وبدأ يحب السينما،
حيث كان يذهب كل يوم سبت مع زميله السنغالي في السكن إلى سينما "ليشترج" ليشاهد
الممثلين "مارلون براندو" و"ستيف ماكوين". وكان "طارق" وزميله من عشاق "جيمس بوند".
كما كان يحضر المحاضرات والحلقات الدراسية في جامعة "الروور" المفتوحة حديثًا ويعمل
بجانب ذلك في المستشفى. وكان ضيفًا مفضلًا في الحفلات لأنه يجيد الرقص، ولم يكن يشرب
البيرة لكنه يجلب معه زجاجة ويسكي ليشارك الآخرين شربها مع الثلج، وهو ما أعجبه بشدة
في ألمانيا. كان يعكر مزاجه برودة الجو وأن البدلة الثقيلة التي فصلها أبوه تعد خفيفة جدًا
بالنسبة لأيام الشتاء في ألمانيا.

كان إخوته يزورونه عامًا بعد عام في الصيف، أما هو نفسه، فقد سافر إلى بلده مرة واحدة فقط طوال هذه المدة ليدفن أباه الذي توفي في حادث سيارة. وبعد ذلك، تعرّف إلى فتاة تختلف عن جميع الفتيات اللاتي عرفهن سواء في ألمانيا أم في بلده، وكان حينها طبيبًا مساعدًا في المستشفى الجامعي بإحدى المدن الصغيرة التي تُجرى بها عمليات التعدين لاستخراج الفحم، كما توجد العديد من إصابات العمل والبيوت الفقيرة. كان "طارق" في الثلاثين من عمره، وكانت الفتاة أصغر منه سنًا ولديها شعر أشقر مفروق من الجانب، كما تهتز مقدمة شعرها وهي تمشي في ممرات المستشفى وكأنها ترقص. كان اسمها "باربرا" وكانت تضحك أكثر من باقي الفتيات الألمانيات اللاتي يعرفهن، ونظرتها إليه مباشرة ومليئة بالثقة وصوتها له رنين قوي وثابت، كما ترتدي بنطلونات بأرجل واسعة وتستمتع إلى أسطوانات "جون بايز" و"بوب ديلان"، وكان قد عرف هو ذلك عنها من زميلتها في التمريض التي ابتسمت وهو يسألها كيف تقضي "باربرا" وقت فراغها. وأُعجب "طارق" بذلك، كما أُعجبت الفتاة بأدب الدكتور الصغير وحزنه الذي يبدو عليه عندما يتعد عن الناس وأيضا تكراره لحرف الـ "R" وهو ينطق اسمها. وكان يثير ضحكها في أثناء الورديات المشتركة وهو يحكي لها عن أبناء إخوته، ثم تحكي هي عن الأسطوانات التي اشتريتها مؤخرًا وعن أنها تريد الذهاب في رحلة إلى باريس في الصيف مع صديقاتها. وسألته "باربرا" عن أبويه وكيف يبدو بلده، وهو أيضًا استعلم عن أبويها وعن حياتهم، إلا أنها قالت إنها لم تعش حياتها بعد.

دعاها "طارق" إلى السينما، ولكنها رفضت لأنها مخطوبة، ثم كرر الطلب مرات ومرات

حتى وافقت على طلبه في إحدى المرات وهي تبسم.

وفي أحد الأيام بعد السينما، كتب "طارق" إلى أخيه أنه قد وجد زوجته المستقبلية:

- احضر سريعاً يا أخي، ستحبونها جميعاً كما أحبُّها.



- لقد كنت أشتاق كثيراً أيضًا يا "ليلي"؟

- ولماذا لم تقل شيئًا؟

وادي الهشام



كنت أجلس وحيداً في الصالون وتليفوني يرنُّ عدة مرات. ظهرت صورة "يوليا" على الشاشة وهي تبسم لي، وكنْتُ على يقين أنها في الحقيقة لا تبسم في تلك اللحظة وأن هذه المرة ستكون الأخيرة التي تظهر فيها صورتها على تليفوني. فتحت الإيميلات، ثم أعدتُ ملء الكوب بالشاي. كنتُ ما زلت متأثراً برحلة مكة، وأشعر بالصداع كأني كنت أنتحب ورقبتي متيبسة كأنها مصنوعة من الأسمنت. دائماً ما كنتُ أفضل النوم طوال النهار والتدخين أيضاً، إلا أن البرنامج الموضوع كان يسير بانتظام كأنه برنامج في معسكر صيفي.

أصدر الأسانسير صوتًا والباب ينفتح ودخل "رامي" الذي ابتسم لي ابتسامة تأمرية وأخبرني أنه قد جهز خروجة في المساء إلى الصحراء، فقال:

- رحلة عزاب على الطريقة السعودية، أنت تعرف أن "حفلة توديع العزوبية" على الطريقة الأوروبية لا تصلح هنا، كالتعري وغير ذلك. لا أقصد أن ذلك يثيرني، فأنا أحب أختك ولن أجرحها بفعل ذلك. ولكن على كل حال ستعجبك الطريقة السعودية أيضًا.
فقلت له:

- يبدو ذلك رائعًا.

وأخذت رشفة من الشاي، ثم سكتنا لحظات فساوره القلق أكثر مما ساورني.
ثم قال في آخر الأمر:

- لقد أخبرت "عمر" بذلك. لستما بحاجة إلى تدبير أي شيء، فكل شيء مُجهَّز يا أخي.
وضحك ضحكته الرنانة القوية ومسح بيده على شعره ذي اللون البني الفاتح الغريب، فتحسست شعري أيضًا كرد فعل غير مقصود. أصيب والدي في آخر أيامه بالصلع، وكنت أخشى أن أصاب بذلك أيضًا، ولكن شعري قوي كشعر "باربرا".
قال "رامي":

- خذ معك بلوفر ثقيلًا يا أخي، فالجو بالخارج يكون قارس البرودة ليلاً، سنصطحبكم بعد المغرب، فصديقي الأنتميم "فادي" جهز سيارات جيب وبها مكان للجميع.



طَرَقَ "عمر" باب حجرتي قبل الساعة السابعة بقليل، وازلنا للآخرين الذين كانوا قد فرشوا سجاجيد الصلاة وبدؤوا في الصلاة، فجلستُ عند إحدى الزوايا وانتظرت حتى يفرغوا من صلاتهم. وفي تلك الأثناء، فكرت أن أبعث رسالة قصيرة إلى "يوليا" أو أن أرسل لها في المساء صورة من الصحراء، لكنني تراجع عن ذلك لأنه سيكون غير عادل وكأنني أعطي قبلة الحياة لعلاقتنا.

وبعد أن سلم "عمر" والآخرين في آخر الصلاة، سمعت صوت الكلاكس قادمًا من الخارج، فوقف "عمر" وابتسم لي في ابتهاج وقال:

- يالاً يا حبيبي. فلنذهب!

كانت ثلاث سيارات جيب سوداء منتظرة أمام البيت مكتوب على أبوابها اسم شركة سفريات "الأهلي للحج والعمرة" بالحروف العربية واللاتينية وباللون الأخضر والذهبي وتحتها نخلة مرسومة. فتح لنا "نبيل" - سائق سيارتنا - باب السيارة، وأخذ مني شنطة الظهر على الفور، وكان "رامي" يجلس في

السيارة مع صديقين له ويتحدثون بصوت عالٍ عن كرة القدم وعن عجز "نبيل" عن ركن السيارة بشكل صحيح.

قال "رامي" بصوت مرتفع:

- أهلاً أهلاً، يا جماعة اسمحوا لي أن أقدم لكم أخي "باسل". يا أخي هؤلاء أعز أصدقائي "فادي" و"حسن". "حسن" هو زوج أختي، أي إنه أخوك أيضاً، يا حبابي شرفتنا، مرحباً بكم، تشرفت بدعونكم.

مد "عمر" يده لـ"فادي" و"حسن" وتبادل معهم المصافحة عن الآباء والأبناء.

نظر "حسن" باتجاهي وقال لي بالإنجليزية:

- مرحباً، مبروك على زفاف أختك.

وأشار لي بإبهاميه، فأومأت برأسي ورفعت إبهامي وشكرته على التهاني.

شغل "فادي" الراديو، وشغل "حسن" أغنية بوب عربي على التليفون، وكانت تجري الأحاديث والمناقشات بشكل متدفق، ومعظمها باللغة العربية. اجتهدت في الدقائق الأولى أن أنتبه للأحاديث الجارية عن العائلة والسيارات والعمل. وعلى الرغم من عدم وجود موضوع محدد للحديث، فإن حديثهم كان بصوت مرتفع. نظرت من النافذة الفامية الذي يُظهر زرقان الأضواء التي تملأ الكورنيش ورأيت الناس يملؤون الشوارع ليستمتعوا ببرودة المساء.

قال "فادي":

- مرحبًا يا أخي العروس، لقد كنت في ألمانيا العام الماضي، أين تقع مدينتك؟ لقد كنا في ميونيخ، كانت زوجتي تريد رؤية القصور هناك، وفي رأيي، إن هذا شيء سخيف ولكن ماذا نفعل أمام طلبات النساء؟ وعلى الرغم من ذلك، فألمانيا رائعة وكرة القدم لديكم مدهشة. وكانت تلك هي المرة الأولى في هذا اليوم التي أبتسم فيها.

اتجهنا ببطء إلى خارج المدينة، عبر الطريق نفسه المؤدي لمكة في البداية، ثم اتجهنا إلى الشرق حيث "وادي الهشام" الذي تقول اللافنة إنه على بُعد نصف ساعة.

كان "رامي" يتحدث باستياء بلا توقف عن عدم كفاءة موظفيه، في حين يشتمني "فادي" من تمييز زوجته، أما "حسن" فلا يتحدث كثيرًا ولكنه يعلق أحيانًا على المباريات المنقولة عبر الراديو.

لكزني "عمر" لكزة خفيفة في جانبي، فهو لم يتوقف طوال الرحلة عن التدخين وعن شرب علبة "الريد بول" التي يمسخها.

قال "عمر":

- كله تمام؟ يا باشا! ساكت ليه؟

فقلت بشكل مختصر وأنا ألتقط سيجارة معروضة عليّ:

- لم أنم جيدًا بالأمس.

عمّ الظلام الحالك منذ أن تركنا الطريق الأسفلتي. في البداية، كانت هناك مصابيح على مسافات متفرقة، وبعد ذلك، لم يتبق سوى كشافات السيارة الجيب، كما بدأت التربة تحت السيارة تتغير وعجلات السيارة تصدر صوتاً وهي تسير فوق الأرض الصخرية. وكان ذلك الصوت هو الوحيد الذي نسمعه في تلك الصحراء.

بين الحين والآخر، يصطدم "نبيل" بمطب فتهتز جميعاً داخل السيارة، فيصرخ "رامي" في وجهه قائلاً:

- "نبيل" يا حمار!

لم يكن "نبيل" يرد عليه، وإنما فقط يهزُّ كتفه ويستمر في القيادة في صمت في ذلك الطريق المجهول.

ظللنا على تلك الحال لمدة ساعتين، ثم سمح "نبيل" لإحدى سيارات الجيب التي تسير خلفنا بتجاوزنا. كانت تلك السيارة تسير على الكشافات الأمامية العالية، وكان يبدو على بُعد وجود منحدر وصخرة كبيرة الحجم بين المستوى الأفقي وأعلى الجبل، وتضيء أمامها أضواء خيمة صغيرة، فقال "رامي":

- ها هو المكان، أهلاً في "وادي الهشام"، الآن يمكن للحفلة أن تبدأ.

كانت هناك ثلاث خيام منصوبة بالفعل، كما تقف سيارة "تويوتا بيك أب" على الجانب بجوار الصخرة، وكان بعض الرجال ينتقلون بين السيارات والخيام ويحملون مخداتٍ وسلالاً.

قال "رامي" بكل حماسة:

- أهلاً أهلاً.

فتنهذ "حسن" وقال:

- أخيراً وصلنا، لقد مر وقت طويل.

وقفت السيارات الجيب بجوار بعضها البعض، ونزل من السيارات الأخرى سبعة رجال جميعهم أصدقاء وأقرباء لـ"رامي" الذي عرّفني إليهم جميعاً ونسيت أسماءهم في اللحظة نفسها، "علي" و"أحمد" و"فيصل" و...

ذهب "نبيل" والسائقان الآخران إلى السيارة "التويوتا بيك أب" وجلسوا على الأرض واتفقوا على السيارة وتشاركوا شرب السجائر، ولم يتلفظ واحد منهم بكلمة أو ينظر باتجاهها. سرتُ مع الآخرين ببطء، وكانوا يحركون أيديهم بالتليفون في كل اتجاه بحثاً عن شبكة، أما "عمر" فقد سار بجانبني على مهل وهو يدخن سيجارته ويرفع رأسه وظهره مستقيم كأنه باشا. وقال وهو يضحك:

- لن يُعجب عمك أنها لا تستطيع الاتصال بنا هنا، إنها تقريباً فعلت كل شيء لكي تعرف

أين نحن، كما أرسلت "سليمان" لبحث عنا.

ثم أغلق تليفونه الـ"آيفون"، وقال بكل رضا:

- لسنا في حاجة إلى هذا الآن.

ثم وضع يده حول كتفي ضاحكًا وقال:

- يلا بينا.

كانت الشعلات موضوعة حول الخيام على شكل نصف دائري وفي منتصفها تشتعل النار. ويحرك شاب ذو عمة كاروهات وسكسوكة عصاه داخل اللهب، ويضع بين الحين والآخر داخله اللهب أشياء تزيد اشتعالاً. وكان "رامي" وأصدقاؤه قد استراحوا على المخدات وجهزوا الشاي والشيشة. ويبدو أن السيارة "البيك أب" كان يركبها أكثر من ستة بدويين، من المحتمل أنهم قد وصلوا قبل الظهر وبدؤوا نَصَبَ الخيام.

استرحت أنا و"عمر" على المخدات بجوار الآخرين، وقد خلط أحدهم أوراق الكوتشينة ووزعها على ثلاثة آخرين، وهو يضع الشيشة في جانب فمه وينفخ سحابة دخان صغيرة، كما أحضروا التمر والتين المجفف والتبغ. لم أشعر بسكون الصحراء الذي حكى لي "ليلي" عنه بحماسة في كروت البريد.

كان البدويون يلقون حول الخيام بالأوعية والأطباق والأباريق، كما وصل أحد الحاضرين التليفون بسماعة كبيرة أطلقت صوت موسيقى عربية فضحك الرجال وتهامسوا وأكملوا أحاديثهم التي لا تدور حول موضوع محدد.

جلس "عمر" أمام "فادي" للعب الطاولة، وكان يسبه ضاحكًا بصوت لا يكاد يُسمع.

وقال "رامي":

- "باسل" حبيبي، تعالَ إلى هنا، أتحب لعب الكوتشينة؟

طرق "رامي" على المكان الخالي بجانبه وأشار لي بالجلوس فيه مع أصدقائه، ثم أكمل قائلاً:

- رائع، أليس كذلك؟ بعد قليل سيتم تقديم الخروف، لقد دفنه الرجال في الرمال الحارة في الصباح خلف الخيمة. صدقني، إنك لم تأكل شيئاً كهذا من قبل في حياتك، تريد رؤيته أليس كذلك؟ يا "يحيى"، تعالَ هنا، إنه أخي "باسل"، ضيف خاص من ألمانيا، أتفهم ذلك؟ لقد أتى من مكان بعيد بالطائرة، إنه لم يرَ حتى الآن كيف نعد الخروف، اذهب معه وأره ذلك.

قام "رامي" من مجلسه على المخدة بصعوبة وعدّل جلبابه، وسار ناحية باب الخيمة وهو يحك الأرض بشبشب قدمه اليسرى، وتعلق بي فكنت أشم رائحة تبغ الشيشة ورائحة عطر "أولد سبايس".

جاء أحد البدو جرياً وانحنى ثلاث أو أربع مرات أمامنا قائلاً:

- حاضر يا باشا حاضر.

وأشار لي باتباعه، وكان يسير بقامة محنية ويعرج برجله الحافية وقد شمّر أطراف جلبابه البني الثقيل ووضعها في يده حتى لا تلمس التراب، وتبدو قدمه

وكأنها من الجلد، وسوداء كباقي ثوبه، ويرتدي عمامة رمادية تبدو كأنها كانت بيضاء يومًا ما،

كما يرتدي فوق الجلابية جاكيت عليه شعار نادي "شيكاغو بولز".

وكان يلتفت لي كثيرًا ويقول بالإنجليزية:

- جيد جدًا، ألمانيا، جيد جدًا.

ثم يشير لي بإبهامه. كما أشار إلى حفرة خلف الخيمة حولها أحجار كبيرة على شكل دائرة

تمتلئ بفحم مشتعل وأحجار يخرج منها البخار وقطع الحجارة المكسورة وأفرع محترقة

تنبعث منها رائحة التتبيلة.

أشار "يحيى" على الحفرة، وقال:

- هذا الماااااا موجود تحت، يعني جوا، جيد جدًا، مااااااااااا.

ووضع كلتا يديه على جبهة الخروف المكسورة وأشار إلى القرون، وانحنى ونبش بيده في

التربة الصخرية وأصدر صوت الخروف بضع مرات حتى يوضح لي أن تحت الفحم يوجد

خروف في الحفرة وسيتم تقديمه إلينا لاحقًا.

فأومأت برأسي ورفعت إبهامي وقلت:

- ممتاز.

فضحك "يحيى" بصوت عالٍ، وضربني على كتفي وقال:

- ممتاز ممتاز أيوه.

وانحنى والتقط فرعاً وبدأ يقلب في اللهب، ثم التقط بيده المكشوفة حجراً من اللهب ووضعا جانباً دون أن تتغير ملامح وجهه.

انبعث دخان كثيف من الفتحة الصغيرة ممزوجاً برائحة شعر محروق ودهون وجلد متفحم، كما انزلقت بعض الحجارة الصغيرة المتوهجة فأحدثت صوتاً. وسع "يحيى" الحفرة قليلاً وأخذ يهوي على الرائحة بيده ثم رجع إلى الورا، ثم قال لي وهو يدفعني بضعة سنتيمترات إلى الأمام:

- انظر، انظر.

فنظرت إلى ما بداخل الحفرة بشكل أوضح.

كانت رائحة الشعر المحروق واللحم الساخن فواحة، كما كانت ملامح الخروف يمكن تبيئها، فأرأسه داخل الفحم وكأنه يحتضن مخدة ساخنة، وفي محجر عينه ما زالت مقلته المتفجرة في مكانها، وفمه مفتوح عن آخره وينظر إلينا من داخل الحفرة في تشكك وخبث، كما تصدر السمانة صوتاً مع الفحم الساخن وينبعث منها دخان رمادي. بدأت عيني تدمع فمسحت أنفي بكمي وكتمت رغبتني في التقيؤ وكححتُ. والتفت بوجهي بشكل لا إرادي بعيداً عن الحفرة لأبتعد عن رائحة اللحم.

فرجع "يحيى" إلى مكان النار وغطى الخروف مجدداً بالفحم والأفرع وقال:

- جيد جداً، أليس كذلك؟

فأومأت برأسي ورفعت إبهامي، فقال "يحيى" ضاحكًا:

- ممتاز، أليس كذلك؟

في تلك الأثناء، كان الشباب قد شغلوا الموسيقى بصوت عالٍ على أغنية "الدنيا حلوة وأحلى سنين..." فبدت وكأنها "بريتني سبيرز" باللغة العربية، وتعالى الضحك والمعارك الكلامية داخل الخيمة، وربما قد سبَّ بعضهم بعضًا أيضًا. شعرت بتشويش في رأسي، وما زال الخروف في النار من خلفي، فسرت بضع خطوات بعيدًا عن "يحيى" في اتجاه الصخرة وقلَّت الرغبة في التقيؤ وتمكنت من التنفس بشكل مريح ولم تعد عيناى تحرقاني، ومسحت وجهي بطرف التي شيرت، وقد امتلأت بالعرق والدموع والرغبة في الاتصال بـ"ليلي" لأصرخ لها وأقول:

- ما هذه السخافة التي تحدث هنا!

قابلني "فادي" وأنا في طريقي إلى الخيمة وهو يسب:

- ما هذه السخافة! لا يوجد مكتب استعلامات وسط الصحراء!

وأخذ يحرك يده بـ"البلاك بيرى" ويشير باتجاه الصخرة من خلفنا وأكمل:

- "عمر" يقول إنني يجب أن أصعد فوق الصخرة، ربما توجد شبكة بالأعلى، هل أنت

بخير؟ اذهب واشرب شيئًا، أراك لاحقًا.

كان بعض الشباب ما زالوا منهمكين في لعب الكوتشينة، وجهاز "رامي" الشيشة، ووضع الجزء المعدني في أعلى الشيشة جانبًا وأخرج شيئًا آخر من جيب الجلابية، وقال:

- آه يا أخي لقد جئت في الوقت الصحيح، هل رأيت الخروف؟ رائع ما شاء الله أليس

كذلك؟ هيا لنشرب مشروبًا فاتحًا للشهية.

وأظهر لي الزجاجاة الصغيرة، وقال:

- من الفندق في دبي الأسبوع الماضي.

وأخرج زجاجة "الجوني ووكر" من الثلاجة الصغيرة وأفرغها في مياه الشيشة، وسقط

الويسكي في قاع الجسم الزجاجي ليرسم قاعدة بنية ذهبية في القاع، ثم ركب "رامي" الجزء

المعدني مرة أخرى ببراعة، ووضع خرطومًا أزرق طويلًا في المقدمة، ونظر لي كالطفل الذي

أنهى واجباته بسرعة على غير المتوقع.

قال "رامي" وهو يعطيني الخرطوم:

- يالاً اتفضل، خذ راحتك، ولكن لا تفشِ السر لأختك، أحضر فحمًا للشيشة، يالاً.

كان "رامي" يحمل الجوزة الصغيرة ويمر على الشباب، وكنت أنا ما أزال محتفظًا بطرف

خرطوم الشيشة، ومر "رامي" من أمامي فأخذت نفسًا.

وجاء "يحيى" بسلة بها فحم مشتعل ورصّه على الشيشة.

جلسنا نحن الأربعة حول الشيشة بحيث نكون جميعًا على مقربة من الخرطوم، وكان الماء داخل الشيشة يصنع فقاعات والرائحة تميل إلى رائحة الويسكي، وطعمه كأننا نستنشق الكحول فيُشعرنا بالدوار وثقل الرأس. كانت الأصوات تتعالى من حولي، كما رجع "فادي" دون أن يجد شبكة لتليفونه "البلاك بيري"، وهو يقول:

- صحراء لعينة!

ترنح أحد أصدقاء "رامي" باتجاه السيارات الجيب، ثم عاد ومعه شنطة جولف سوداء ثقيلة، فصفق الرجال بصوت مرتفع وتحدثوا بكلام غير مفهوم بالنسبة لي، فسألني "عمر" الجالس بجانبني وهو يطرق على كتفي:

- حبيبي، هل أنت بخير؟ أنت تبدو شاحبًا.

فأجبتُه بلغة عربية مكسرة:

- نعم بخير، ما في مشكلة.

فضحك الرجال وكرروا كلامي بالطريقة نفسها، وكأنهم لم يروا أحدًا هكذا من قبل.

رمى "عادل" شنطة الجولف على الأرض، وقال:

- يا "يحيى" رتب العلب هنا في صف واحد، هيا ابدأ.

ثم رمى لـ"يحيى" شنطة بلاستيك بها علب مشروبات فارغة، فلم يتلقفها بالسرعة الكافية، فوقعت الشنطة البلاستيك على الأرض وتقطعت. شعرتُ بالدوار وعاوطني الشعور بالغثيان.

وزع "عادل" ثلاث بنديات صغيرة كانت في أغطية حمراء في شنطة الجولف، وقال:

- كونوا حذرين يا شباب، هذه كانت هدية من الملك "فيصل" لأبي عندما استأصل من

ابنه الزائدة الدودية، أنتم الآن تمسكون سلاحًا ملكيًا.

كان أحدهم يدخن "جوانًا" من الحشيش، ربما يكون "يحيى" أو أحد البدوين الآخرين،

فاختلطت رائحة الويسكي بعفن الخروف ورائحة الحشيش. كانت البنديات الثلاث قد تم

توزيعها بسرعة، حيث اصطف "رامي" و"فادي" و"حسن" بجوار بعضهم البعض، وأخذوا

يصحون وقفتهم. وضع "فادي" البندقية جانبًا ولحق بـ"يحيى" الذي كان يرتب علب الكولا

في صفٍّ واحد، وقال "فادي":

- ستكون زوجته شاكراً لي، عندما أقتله لا تفشوا السرَّ، اتفقنا؟

فضحك الرجال، في حين نظرت أنا إليه كالمصعوق، فقال:

- لا تقلق يا أخي، ما زال السلاح غير معمر.

لم يفقد "يحيى" هدوءه، وظل يرصُّ العلبة تلو الأخرى حتى أشار بإبهامه عاليًا واتجه ببطء ناحية حفرة الخروف.

وُضعت الخراطيش وبدأ إطلاق النار، فتعالى صدى صوت الخراطيش بين الصخور، كما كانت تصدر العلب المصابة صوتًا عاليًا وترتفع في الهواء ثم تسقط على الأحجار. وقفنا في نصف دائرة حول القناصين الثلاثة، حيث يتم التصفيق لمن يصيب الهدف، ويواجه صاحب الطلقة التي تخطى طريقها بالسخرية. أصاب "فادي" ثلاثة و"رامي" أربعة ولم يُصَب "حسن" شيئًا سوى أنه أفرع عصفورين كانا نائمين خلف العلب. وتعالى صوت موسيقى البوب القادم من الخيمة الخالية.



فكرت في "ليلي" وفي "أليكس" وفي جلوسنا فوق سطح مبنى "سيمانس مسيون"، حيث كنا نستمع إلى صوت الميناء ونشارك السجائر، فكرت في أننا كنا وقتها نجلس لإمتاع بعضنا البعض وليس لأكل الخروف واللعب بالأسلحة وشرب الويسكي والشيشة، وكان ذلك أمرًا رائعًا. كنت أريد أن أسأل "ليلي" في أسرع وقت عن هذه السخافة التي سببتها لنا، إلا أنه لا توجد شبكة في تليفوني.



أعطاني "رامي" البندقية وقال لي:

- يالآ يا أخي، يا "باسل"! دورك، اثبت لنا أنك بدوي حقيقي.

أعطاني "رامي" البندقية في يدي وبدأ يعلمني، اليد مرتفعة والكتف للخلف والساق للأمام والوقفه ثابتة والأصابع على الزناد.

قال "فادي":

- أرنا ما تعلمته.

رجع "رامي" بضع خطوات إلى الخلف وقال:

- اضرب.

ضغطت على الزناد فارتد السلاح في كتفي في خفة، فترنحتُ بضع خطوات إلى الخلف واستعدت توازني، وكانت الطلقة قد أصابت الربوة المرتفعة والعلبة ثابتة في مكانها والجميع يضحكون من حولي.



انخفضت يدي ببطء وهي ترنحش، وفكرت في "ليلي" التي كنت أنا و"أليكس" قد أصبنا أهدافنا من الورود - في أحد الملاهي ببندقنا الهوائية - من أجلها، وكان "أليكس" يتباهى أنه ضرب صفًا من الورود كاملاً، أما أنا فقد أصبُتُ وردتين. واحدة صفراء والأخرى بنفسجية وعليهما الكثير من التتر، وظلت باقية الورود الحريرية هذه - المكونة من ست وردات - موضوعة لوقت طويل في فازهة على نافذة المطبخ.



قال "رامي" وهو يطرق على كتفي ويضحك:

- إذا علينا أن ندربك كثيرًا قبل أن نعتريك عضوًا كامل العضوية في عائلتنا.

قال "فادي":

- يالاً، تعال، جرب سلاحًا آخر...

وأمسكني من خصري وأراد أن يوجهني ناحية الزاوية الصحيحة.

وعندما ضغط على زناد البندقية لم أستطع السيطرة على يدي نتيجة قوة الارتداد،

فارتدت يدي اليسرى بقوة واصطدم كعب البندقية بصدغ "فادي". وقع السلاح على الأرض

وانكسر شيء ما. فوقف "فادي" مكانه يمسح صدغه بيده اليمنى ويحملق. تنهدت بقوة

ووجهت قبضة يدي اليمنى تجاه "فادي"، وكأنني معتاد أن أضرب الآخرين بالكلمة.

وقع "فادي" على الأرض بجوار البندقية التي انفصلت عنها عدستها، وألقيت نفسي فوقه

لأستمر في ضربه، وبعد ذلك بدقائق، ربما تكون عشرًا أو خمس عشرة أو عشرين وربما تكون

ثوانٍ فقط، أبعدني أحدهم وهو يتمسك بيدي التي لا تزال تريد أن تضرب مجددًا.

فهمس "عمر" في أذني:

- حبيبي، بس خلاص!

تحدث "رامي" مع "عمر" وأعطاه ميدالية مفاتيح، وكان باقي الرجال يقفون تحت الظلة بجوار "فادي" الذي اصطدم جانب جبينه في أثناء وقوعه بعلبة كولا فتورم، ألبسني "عمر" الجاكيت الخاص به حول كتفي كما أعطاني سيجارة مشتعلة في يدي، وقال:

- انتظر هنا قليلاً.

ووضعتني في إحدى سيارات الجيب، ثم عاد إليّ مجدداً والآخرين ينظرون إليه في صمت، وقال:

- يالاً يا باشا، أخذت مفاتيح السيارة، دعنا ننصرف من هنا.



جلستُ أنا و"عمر" في أحد مطاعم كنتاكي في طريق العودة إلى جدة، وكان أمامي كوب قهوة بارد تم إعداده بواسطة ماكينة القهوة ولم أقرب منه. فلم أكن قد أصبحت بأفضل حال، كما أن رأسي بدأ يتوقّف تدريجيّاً عن الشعور بالدوار وأصبحت أفكارني واضحة. قال "عمر":

- "فادي" ليس رجلاً، إنه لم يفز بشيء، كما أن هذا النوع الحقيق ثقيل على قلبي، كل ما يحزنني هو أنني لم أكل الخروف.

والتقط بضع شرائح بطاطس ووضعها في فمه ومضغها صامتًا.

وبعد أن ركبنا السيارة ظللنا معظم الوقت صامتين، فقال "عمر":

- لا تقلق يا حبيبي، لن تعلم أختك شيئًا.

قدمت لنا عاملة المطعم دجاجًا مقليةً جامبو، وقالت:

- تفضلا.

عاودتني الرغبة في التقيؤ من جديد.

قال "عمر" وهو ينظر من نافذة السيارة التي تقف وحدها ليلاً في الطريق السريع الخالي

من السيارات:

- أتعلم أن لديّ ابنًا؟ ابنًا آخر غير شرعي، أمه أمريكية.

فانطلق اللفظ العربي من فمي عن غير قصد وقلت:

- عن جد؟ أمزح؟

فقال "عمر":

- لا، اسمه "دافيد". تعرفت إلى أمه في "أوريجون" عندما كنت أدرس هناك. إنها سيدة

رائعة، ولكن لم يكن ينبغي أن أفعل ذلك، أتتخيل ما قالتها العائلة؟ لم أرَ "دافيد" منذ خمس

عشرة سنة ولم أتواصل مع أمه منذ فترة طويلة.

ثم تناول جناح دجاجة ولم يضعه في فمه، وأكمل قائلاً:

- أردت أن أبقى هناك يا "باسل" وأن أتزوجها. أردت أن أبقى في الولايات المتحدة، ولكن

أحياناً تكون العائلة أقوى من أحلامك.

لم أفهم ذلك من "عمر". توجد صور لي وله معاً في صغرنا، وكنت أنا في الخامسة تقريباً

وهو في الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمره، وكانت لحيته ما زالت في مرحلة النمو،

وكان يشبه بطل مسلسل "ماجيم"، "قصة" مرتفعة وشعره طويل جداً من الخلف. كان وقتها

يحب كل ما هو أمريكي؛ كرة القدم، ألعاب الفيديو، ديزني لاند، أفلام "روكي".

انتقلنا إلى ألمانيا قبل أن يأمر عمي "خالد" فجأة بعودة "عمر" إلى جدة من أمريكا،

ولكنني فكرت بعدها كثيراً عما إن كان ذلك له علاقة بالخمير والحفلات.

قال "عمر" في آخر الأمر:

- أريد التمتع بالهدوء يا "باسل"، فالأطفال قد كبروا ولم يعودوا في حاجة إلى أمّ، ولكن

عمتك لا تعطيني الفرصة، لذلك فعليّ أن أجد من أتزوجها للمرة الثالثة، أنت محظوظ يا

باشه، في ألمانيا كل شيء سهل. دعني أنصحك نصيحة: لا تفكر مطلقاً في الزواج.



الشظايا



بدأت الأشياء تتلف بشكل متكرر، ففي أحد أيام الثلاثاء بعد الظهر، أطلق "اللاب توب"

الخاص بـ"أليكس" صوتاً ثم أصدر رائحة احتراق، ثم أظلمت الشاشة تمامًا.

كان "أليكس" في تلك الأثناء منشغلاً بتنظيم ندوة، ولم تكن لديه نسخ احتياطية من

ملفاته، فأطلق السباب وهاج في الحجة قائلاً:

- إن هذا الجهاز الملعون قد قرر الآن أن يتوقف عن العمل، يا لها من أجهزة تقنية

ملعونة! لقد ضاع كل عملي عليه.

فهزت "ليلي" كتفها وقالت:

- هذا خطوك لأنك لم تحتفظ بنسخ منها.

ثم ذهبت إلى المطبخ ووضعت ماء الشاي على النار، وكانت مشمرة رجلها اليمنى من البنطلون حتى ركبتها وتظهر خربشتين في سمانتها، وتضع قلمًا أحمر في ضفرتها المستديرة.
رد عليها "أليكس":

- ليتك كنتِ تحتفظين بنسخ احتياطية، أعدي قهوة بدلًا من هذا الشيء المقرف، إننا لسنا في حديقة حيوانات هنا.

أدرتُ وجهي ناحية المطبخ وأنا أفف تحت إطار الباب ورأيت "ليلي" وهي تقف وتعطينا ظهرها وترفع يدها اليسرى بإصبع الوسطى. لم تكن تطيق "أليكس" في ذلك الوقت.
استمر الوضع في الأسبوع التالي. وفي الليلة السابقة لذلك، كان عندنا صديقات "ليلي" من مدرسة "دويتشه بوخ شليندر" سابقًا، وكن يجلسن في المطبخ للتجهيز لامتحان، و"أليكس" يطبخ أكلة "تشيلي" الحارة ويداعب "سارة".

أخرجت "ليلي" الأطباق والسلطانيات من غسالة الأطباق، وكنتُ أنا جالسًا على مائدة المطبخ أحل الكلمات المتقاطعة في "مجلة التلفزيون".
قلت لها:

- أخبريني بآلة زراعية تبدأ بحرف "ج".

فقلت:

- جرار.

ورصت الأطباق فوق بعضها البعض، واعتدلت وأغلقت باب غسالة الأطباق برجلها،

سلطانية ثم الأخرى ثم باقي الأطباق، فانزلق كل شيء من بين أصابعها ووقع على الأرض، ولم

يبقى في يدها سوى وعاء صغير أصفر وظلت تحملق في الحطام المتفرق على الأرض.

قالت "ليلى":

- سيقتلني "أليكس"، لقد كانت تلك أطباق والده.

وقفتُ من مجلسي وبدأت أجمع القطع من الأرض، وأخذت الوعاء الأصفر من يد "ليلى".

قلت لها:

- إنها مجرد أطباق.

ولم أكن أعرف أن "ليلى" محقة، فتلك الأطباق كانت منذ أن كان والد "أليكس" طالبًا في

المدرسة، وقد مات والده منذ سنتين في حادثة.

جمعنا القطع المكسرة ووضعناها في كيس القمامة وكنسنا الأرض، فاختلط

الشعر الطويل الأسود بالفتات والتراب وقطع الخزف المكسورة. التقطت "ليلى"

قطعة من السلطانية الزرقاء من تحت الغسالة ثم جلست على مائدة المطبخ، ووضعت القطعة أمامها وجعلتها تدور حول نفسها في دوائر كبيرة وصغيرة وكان القطعة ترقص على مائدة المطبخ.

سألتني "ليلي" قائلة:

- يجب عليّ أن أذاكر كثيرًا لامتحان الغد، أيمكنك أن تقوم بهذا العمل؟
لم تنتظر إجابتي فذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

في الأسابيع التالية، أصبحنا فقط نصطم ببعضنا البعض في المطبخ وكأننا نسير ونحن نائمون. كنا نسمع أحدنا يعد القهوة وأبواب غرفنا مغلقة، أحيانًا تقف فتاة غريبة في الحمام في الصباح، ترتدي زي كرة السلة الخاص بـ"أليكس" وتغسل أسنانها بفرشته. كانت "ليلي" تغادر البيت مبكرًا وتذهب للسباحة وبعدها إلى العمل.

بدأ الخريف في "هامبورج" ولم يعد الضوء الدافئ يدخل المطبخ حتى ساعات متأخرة من النهار كما هو معتاد. كما سكنت حركة طيور النورس، وسكن صوت الشارع أيضًا، وأحيانًا تمطر طوال اليوم.

وبعد ذلك، تركت "ليلي" البيت. كنت أعود من لعب كرة القدم مبهلاً بالكامل، فأترك شنطتي الرياضية تسقط على الأرض وأدخل الحمام، وكنت أقف أمام باب

حجرة "ليلي" على الرغم من أنها لم تعد في البيت. وكان الأمر مضحكًا بالنسبة لي عندما أتذكر أن "ليلي" في مثل هذا الوقت تعود من عملها، وفي أثناء وجودها خارج البيت تُحکم إغلاق حجرتها حتى لا يدخلها "أليكس" وفتياته.

كانت غرفتها مرتبة، فحتى السرير قد رتبته قبل رحيلها على الرغم من أنها لم تتعود فعل ذلك. وأوراق امتحاناتها مرتبة في كومتين على مكتبها. كنت أعرف أن هناك شيئًا ما سيئًا ولكنني لا أفهمه. حاولت أن أتصل بـ"ليلي"، ولكنني ذهبت لأنظر في صندوق البريد. في غرفتي، يوجد على المخدة جواب ذو ورقة مربعات بالية، ملأت "ليلي" الورقة بقلم أسود بخط يشبه خط يدها في صباحها.

"عزيزي باسل،

لقد أخبروني اليوم أنهم لن يحتاجوا إليّ في مكتبة الكتب بعد الامتحان، لقد ضغطت على الزيون كثيرًا كي يشتري، كما أنني لم أتمتع بروح الفريق. يجب أن أتعلم أن من يعمل بتجارة التجزئة عليه أن يسيطر على نفسه بشكل كبير.

كما أنني أخبرت "أليكس" أنني أحبه أكثر من أي شيء آخر، لكنه قال فقط: "أنا لا أحب

شيئًا يا ليلي".

لماذا يجب أن أبقى هنا يا "باسل"؟ أخبرني، لماذا؟

لقد تحدثت مع "باربرا" الأسبوع الماضي وكالعادة كان كل شيء سواء بالنسبة لها، لقد قالت إنني يمكنني أن أحصل على المال من التأمين على الحياة الخاص بأبي، كما يمكنني أن أفعل به ما أشاء.

وهذا ما أفعله الآن يا "باسل". لا أريد البقاء هنا حيث لا يجدُ جديد ولا يناسبني شيء. كل شيء هنا صعب وثقيل القلب، وعلينا أن نتحمل دائماً وأن نظل صامتين ومسيطرين على أنفسنا وألا نظهر حبننا. كذلك كان الأمر مع "أليكس" ومع الجميع أيضاً، ولم نجد التوافق مطلقاً.

لقد حجزت بالأمس تذكرة سفر إلى القاهرة؛ لأنني أريد دائماً أن أرى شكل الحياة هناك، سأذهب لأشاهد العالم الذي ننتمي إليه بشكل يفوق تصوراتنا، وحتماً سأجد مكاناً يناسبني دون أن يواجهني فيه تعب.

لا تغضب لأنني لم أودعك، ولكنني اعتقدت أن هذا أفضل لنا جميعاً. اعتنِ بنفسك وبـ"باربرا"، واعتنِ قليلاً بـ"أليكس". سأكتب لك قريباً.

أختك،

"ليلي"



وقفت على السرير ونظرت إلى الدولاب المعلقة عليه ملابس العيد المكوية. رائحة التي شيرت الذي أرتديه تشبه رائحة الدهن المقلية ورائحة النار. التقطت تليفوني الموضوع على الكومدينو ونظرت إليه، ولم أجد رسائل من "باربرا" أو من "يوليا"، فهذاني ذلك أكثر مما أغضبني. ضبطت المنبه على الثامنة، مما يعني أنه بعد نحو خمس ساعات سيرنُ وسأقوم وسأستحم وأحلق وأرتدي الثوب السعودي، وكأن ذلك شيئاً عادياً. ثم أذهب إلى الأسفل حيث يوجد الآخرون ومعهم أختي التي ستكون على حالتها المعتادة "ضائعة إلى الأبد".



العُرس



كانت الغرفة حالكة الظلام عندما استيقظت، حيث تحجز الستائر أشعة الشمس. جلست

مرتبگًا، ألم أسمع المنبه؟ كانت الساعة في تليفوني 10:45، ومن الدور الأسفل، تصدُر أصواتٌ

صاخبة، ففتحت نور الأباجورة ودعكت عيني.

كانت "ماري" تدقُّ الباب بهدوء وحرص، وأدخلت رأسها من الباب، وقالت:

- الإفطار جاهز والآخرون ينتظرون، مبروك يا أخ العروسة.

كان لقب أخ العروسة هو اسم شهرتي في ذلك اليوم، فقلت لها:

- شكرًا يا "ماري"، أعطيني عشر دقائق.

كانت الساعة قد أشرفت على الحادية عشرة، عندما دخلت الصالون، وعمتي و"ليلي" واثنتان من بنات عمي وعمي نفسه يتناولون الإفطار. تم تغيير خطط اليوم، ولم أفهم كثيراً ما يدور في الحديث، فقد كانوا يتحدثون بسرعة وفي صخب.

كان عمي "خالد" يقرأ الجريدة ويكتب ملاحظات ويعيد شرب كوب الشاي بعد امتلائه مجدداً، قال لي عمي عندما لاحظ جلوسي مرتبكاً في الحجرة:

- لا تقلق يا ولد، اترك للنساء فعل كل شيء، لا تفعل شيئاً اليوم.

وظلت "ليلي" بعد الإفطار جالسة تنظر إليّ وقالت:

- كيف كان الحال بالأمس؟ لقد أرسلت لـ"رامي" بعض الرسائل ولكنه لم يرد.

فقلت لها:

- لم تكن هناك شبكة في الصحراء. لقد عدت أنا و"عمر" ليلاً، فلم أكن بخير، يبدو أنه بسبب القلب.

قالت:

- للأسف، ألم تأكل الخروف؟

فقلت:

- لا لقد افتقدته للأسف، لكنه كان لطيفاً، إن "رامي"...

فقاطعتني قائلة:

- أعرف أن صوته عاليًا وأنه يظهر دائماً ما بداخله، ولكن صدقتي إنه طيب.

قلت:

- لا عليكِ ما دام هو طيباً معكِ.

فضحكت "ليلي" في ارتباك ونظرت إلى المائدة وخفضت بصرها تماماً كما نتخيل أي عروس عربية، وكان إصبعها السبابة يسير محاذة حافة كوب الشاي الفارغ. التليفزيون في الخلفية يذيع مسرحية مصرية قديمة بالأبيض والأسود تشبه تلك الأفلام التي تعلمت "باربرا" من خلالها اللغة العربية.



نظرت إلى "ليلي" وتذكرت الليلة السابقة، تذكرت "فادي" والخروف و"رامي" والويسكي والشيشة. بحثت عن أختي الصغيرة، تلك الفتاة التي عهدتها دائماً تريد كل شيء في الدنيا، ولم تبتعد عني مطلقاً، تلك الفتاة ذات الضفائر السوداء التي تمسك أرنبتها الدُّمية في يدها، تلك الفتاة ذات الفستان الصيفي الأحمر التي سافرت معها أنا و"أليكس" بالسيارة إلى إسبانيا وفرنسا والبرتغال للهروب من شتاء "هامبورج". فكرت في "أليكس" وتساءلت أين يمكن أن يكون، وهل يفكر في "ليلي" بين الحين والآخر أم لا، وهل يفكر في؟



مددتُ يدي اليمنى عبر المائدة وأمسكتُ بيد "ليلي" اليسرى، كانت أصابعها دافئة

وطرية، وكانت دبلة الخطوبة كالغريب الذي يقف بيننا.

مر اليوم بالنسبة لي ولـ"عمر" بشكل هادئ تمامًا. حيث ذهبت "ليلي" ومعها النساء إلى

مركز التجميل، وأوضح لي "عمر" أن مهمتي الوحيدة في ذلك اليوم هي أن أستعدَّ للتصوير

وأن أصطحب "ليلي" لعريسها، وسيكون الاحتفال غير مختلط كما هو معتاد في ذلك البلد،

فالنساء في مكان والرجال في مكان. قال "عمر":

- أربعمئة سيدة، الأمهات والحמות وبنات العم والعممة والمصاهرون والصديقات.

حافظ على هدوئك.

فقلت له مندهشًا:

- وكم نحن؟

فقال "عمر":

- لا تقلق يا حبيبي، حفلتنا أصغر، نحن لا نتعدى الخمسين، فالرجال يحضرون بشكل

أكبر في الخطوبة، وكان ذلك منذ ثلاثة أشهر، أنت لم يفتك شيء، فالعُرس أيضًا به خروف.

وضحك "عمر" وطرق على كتفي، ثم أكمل:

- سنطلب أكلاً من مطعم "البيك" للفراخ، ونلعب الكوتشينة وندخن الشيشة، وسيكون

المجلس جيداً.

أرسلت لي "ليلي" صوراً من مركز التجميل تبين كيف يتم تزيين النساء، حتى هي نفسها

اختفى منها جزء كبير من ملامحها وأصبحت تشبه دمية عربية مزينة. فخصلاتها السوداء

أصبحت أطول وأكمل وجمعت كلها في توكة لامعة صغيرة، وفمها يبدو أكبر بفضل أحمر

الشفاه اللامع.

بدأت قاعة الفرحة في الفندق الفخم وكأنها مصنوعة من الجلاتين، فالأرض الملساء تعكس

أنوار ثلاثين نجفة معلقة، وهناك ستون أو سبعون مائدة على كل منها غطاء أبيض، وكراسي

ثقيلة لونها أحمر غامق، والقاعة بأكملها ممتلئة بالورود الحمراء. تحيط الترابيزات كلها

مسرح كبير مزين بالأنوار والورد. وذكرني ذلك كله بشكل الاستقبالات والحفلات الراقصة في

القرن التاسع عشر.

كانت القاعة مجهزة بميكروفونات وتليفونات، والخدمات الفلبينيات بيض الوجوه يتحركن

حولنا ويعدلن الكراسي ويضعن الأكواب على الترابيزات ويضعن المفارش.

قال "عمر" ضاحكاً عندما رأى تعبير وجهي:

- مالك يا باشا! أغلق فمك.

كنا نسير داخل القاعة و"عمر" يشرح لي برنامج الحفل. النساء يحتفلن

منعزلات، حيث توجد فرقة موسيقية ومصورون سيجهزون فيديو الحفل،

وعندما يكتمل حضور المدعوين، سيدخل العروسان إلى القاعة وحينها ستبدأ بعض المراسم

مثل تبديل الدبل.

قال "عمر":

- ولكن علينا نحن الرجال أن ننصرف سريعًا وإلا ستحدث مصيبة.

سمعنا صوت عمتي تقول:

- يالاً يا أولاد.

وقدمت عمتي من إحدى حجرات القاعة إلى المسرح ولوَّحت لنا، ولم أستطع التعرف إلى

عمتي وهي ترتدي فستان سهرة أسود يُجرُّ وراءها على الأرض وشعرها متجمع في ضفيرة

تعلو رأسها تشبه فيها "أم كلثوم"، وحركتها أسرع ووجهها مضيء، وكأن السيدة العرجاء

العجوز التي كانت معنا في الأيام الماضية قد تبذلت.

قالت عمتي:

- يالاً، المصور ينتظر.

سرنا وراءها إلى الحجرة الجانبية، وكان المصور يتحرك بخفة بين كاميرتين موضوعتين على

حامل وبهما أنوار وعاكس. تم وضع شاشة عرض رمادية كخلفية لنا وبحث المصور عن أفضل

زاوية للضوء.

كان عمي "خالد" و"رامي" يقفان على الجانب مع رجال آخرين بعيداً عن الكاميرا ويناديان على المصور، وكلاهما يرتدي جلابية بيضاء والمشلاح وهو العباءة السوداء الثقيلة ذهبية الحواف كالتى يرتديها الشيخ، وكان "رامي" يرتدي عمامة ذهبية. وفكرتُ في أن العمامة فكرة جيدة بالنسبة لصلح "رامي" وضحكت على هذا التفكير. ثم جاء "رامي" إليّ واحتضني.

وقال لي وهو يلعب بياقة ثوبي:

- يا أخي، الله يخليك، مبروك وأهلاً هيئتك رائعة وكأنك واحد منا.

فطرقت على كتفه وقلت له مخالفاً قلبي:

- مبروك يا "رامي".

بدأت الموسيقى تملأ القاعة المجاورة، وغنّت إحدى السيدات بصوتها النشاز أغانٍ عربية تقليدية، وعلا صوت دقّ الطبلّة.

قالت عمّتي:

- ها قد جاء أول الضيوف، يجب أن نسرّع ليكون أحد أفراد العائلة هناك في استقبالهم.

أوقفنا المصور بعضنا بجوار بعض، "رامي" وأبوه وأخوته وعمي "خالد" و"عمر" وأنا، والتقط لنا صوراً بأوضاع مختلفة، وراء بعضنا البعض وبجوار بعضنا البعض وجالسين وواقفين.

جاءت "أميرة" بنت عمي من إحدى الغرف ومعها فتيات أخريات ترتدين أيضًا فساتين سهرة حمراء وزرقاء وخضراء ووردية تلمع وتصدر صوتًا وهي تُجرُّ على السجاد الأحمر الغامق. اصطفت الفتيات بجوار بعضهن البعض، وكأنهن نجومات أفلام تتسلمن جوائز أوسكار، وكُنَّ كلهن ترتدين جواهر كثيرة من الذهب والأحجار الكريمة، وإحادهن تضع ثلاث وردات برتقالية اللون في شعرها.

قالت لي "أميرة" وهي تدفعني تجاه الباب الذي قدمت منه وتغلقه وراءنا:

- "باسل" حبيبي أحضر أختك، إنها تشعر بالقلق عند الكوافير.

كان الأمر يبدو في الجناح الخاص بـ"ليلي" في الفندق وكأننا في إعصار، فالأحذية والفساتين مبعثرة على الكراسي والسريير الكبير، وعلى ترايبزتين كبيرتين، يوجد العديد من أدوات الزينة، وفي الهواء، توجد سحابة من رائحة البرفان، ولم أكن أستطع سماع أي شيء آخر سوى الصوت القادم من القاعة والضجيج حول المصورين وبعض أصوات كلاكسات السيارات القادمة عبر الستائر القטיפية. قلت لنفسي إنها أول لحظة هدوء اليوم دون تليفون أو تليفزيون أو موسيقى أو أشخاص. نظرت ناحية "ليلي"، وكان باب الحمام الكبير نصف مغلق، فنظرت منه.

قالت "ليلي":

- ادخل.

كانت أختي تقف أمام المرأة وهي متكئة على الحوض الوردى وترتدي فستان العُرس وتضع يدها بحرص على شعرها. فخطوتُ خطوة داخل الحمام ووقفت خلفها أنظر إليها في المرأة. كانت تبدو شديدة الجمال في فستانها وعينها الواسعتين المكحلتين. رأيت أمامي صورة البنت الصغيرة التي كنتُ أصطحبها إلى المدرسة وكانت تتبعني أينما أذهب وأشاركها كل شيء في حياتها. كانت ترتدي حلقًا من الألماس في أذنها وتضع أحمر الشفاه وعيناها تلمعان. التقت نظراتنا عبر المرأة فابتسمت لي وشعرت بتأثري. والتفتت إليّ ببطء حتى لا تُعطل الكوافير وقالت:

- قل لي، كيف أبدو؟

فقلت لها:

- ملكة.

ومددت يدي ومسحت بحرص على شعرها المزين الذي وضع عليه الكوافير بنسة شعر لامعة على شكل نجمة.

فقلت لها وأنا أمسك البنسة بحرص:

- اثبتي قليلاً.

لاحظت أن يدي ترتعش قليلاً، فسحبت النجمة وضغطتها مجدداً داخل الشعر الممتلئ برائحة البرفان، مما أصابني بالدوار.

قلت لها وأنا أشعر بهمارة:

- الآن تبدين كما يجب أن تكوني.

ونظرنا إلى بعضنا البعض مباشرة للمرة الأولى خلال هذا الأسبوع وامتلأت أعيننا بالدموع.

فمسحت "ليلي" بيدها على خدي وقالت:

- شكرًا لأنك بجانبني اليوم.

فقلت لها:

- وأين يجب أن أكون؟

فاحتضننا بعضنا البعض وقتًا قصيرًا، وقالت ضاحكة:

- مكياجك وجلابيتك، إنهما لا يختلطان.

والتقطت بعض مناديل الكليينيكس والتفتت إلى المرأة ومسحت تحت عينيها مرتين أو

ثلاثًا.

قلتُ لها وأنا أتنفس بعمق:

- هيا إنهم ينتظروننا.

كان هناك أمام جناح "ليلي" من يتصورون ومن يتكلمون، وعندما خرجنا من الباب،

توقف الجميع وركزوا أنظارهم علينا ثم بدؤوا في التصفيق، وتعالت أصواتهم:

- آه، يا أحلى عروسة!

- الله يحميكي يا أحلى "ليلي".

- ألف ألف مبروك.

وتم التقاط الصور مع العروس وأهل "رامي" ومعنا كلنا في مجموعات.

قالت عمتي:

- هيا، يجب أن ندخل، الناس ينتظرون.

ودفعت بنات عمي وقريبات "رامي" تجاه قاعة الاحتفال، ثم أكملت:

- "باسل"، حبيبي، خذ "ليلي" وعمك سيتقدم، و"عمر" خلفك ثم "رامي" وأبوه وإخوته،

يالاً يالاً.

أمسكت "ليلي" بذراعي وهي تضحك، وكنت أشعر بضربات قلبها التي تزداد سرعة،

وتنفست مرتين بعمق وأخفضت بصرها إلى الأرض، وكانت ابتسامتها رقيقة.

انتظمتنا في الترتيب الصحيح بسرعة وانفتح باب القاعة التي أصبحت

أنوارها أكثر سطوعاً، وتعالّت أصوات الزغاريد المختلطة بدق الطبول

والضجيج والتصفيق. دخلنا في ترتيب إلى المسرح وراء بعضنا البعض، ورأيت

أمامي بحرّاً من وجوه السيدات المزينة بالملكياج. وبعضهن وضعن العباءات

والحجاب وقتًا قصيرًا حتى يخرج الرجال، وبعضهن ترقصن على المسرح وكأنهن في حفل لموسيقى البوب.

ازداد ارتفاع صوت الموسيقى، ورأيت كرسيين ذهبيين لهما ظهر عالٍ قد تم وضعهما على المسرح، وعليهما قوس من الورود الحمراء وسلاسل الأضواء. أشار لي عمي "خالد" أن أجلس "ليلي" على أحدهما، فسحبت يدها من يدي وانزلت يدها اليسرى برفق من يدي اليمنى حتى تشابكت أصابعنا، وفكرت أنها ستكون المرة الأخيرة التي أفعل فيها ذلك فشبكت أصابعي بين أصابعها بقوة لثانيتين.

جلس "رامي" على الكرسي بجوار "ليلي" ونظر لي مبتسمًا. وقفنا جميعًا بجانب العروسين وأدت الفرقة الموسيقية رمزًا أعلى وغنت المغنية "مبروك يا أم العروس"، وبدأت "سحر" وعمتي ترقصان، حيث تؤديان حركات رشيقة باليد وتستديران مع الموسيقى وتصفقان مع النساء الأخريات في القاعة اللاتي غنت بعضهن مع المغنية وبعضهن قدمن إلى المسرح للرقص. أشار عمي ووالد "رامي" للفرقة الموسيقية بالتوقف قليلًا، وأخرج والد "رامي" علبة خاتم الزواج من جيب المشلاخ، وأمسك عمي "خالد" الميكروفون من المغنية وقال أحد الأدعية وقرأ الفاتحة ثم أعطى "رامي" و"ليلي" الخواتم التي أخذها سريعًا من يده.

أطلقت النساء الزغاريد مجددًا وبدأت الموسيقى، وقام "رامي" من الكرسي وأمسك بيد "ليلي" وقبلها، فبدأ على وجه "ليلي" علامات الابتهاج.

كان يجب علينا نحن الرجال أن نغادر القاعة، فاصطحبني "عمر" خلف عمي و"رامي"
خارج المسرح ثم إلى خارج القاعة. نظرتُ خلفي مجدداً فوجدت "ليلي" بين مجموعة من
الفتيات بعضهن تضحك وبعضهن تبكي. كانت "ليلي" تقف مع واحدة من أصغر بنات عمي،
ورأيت بطرف عيني أنها خلعت حذاءها وبدأت في الرقص.

هأنا أودع ذكريات الصيف والطفولة والواقع الجديد الذي نحن فيه - أنا وهي -
وسينتهي ذلك الوقت، سينتهي وينشأ واقع جديد يرسمه "ليلي" و"رامي". وأصبحت أنا في
خانة الذكريات التي تخطر على البال بين الحين والآخر.



المغادرة



كان ينبغي لـ"عمر" أن يوصلني إلى المطار قبل الظهر، وقبلها قدم إلينا الأقارب وتمنوا لي رحلة سعيدة وأعطوني هدايا لي ولـ"باربرا"، توابل ومخبوزات ومكسرات وجلابيتين وشبشباً جديداً.

كان الإجهاد ما زال يبدو على عمي "خالد"، إلا أنه يطلب من "ماري" شيئاً من المطبخ كل خمس دقائق، ويشرب الشاي ويُشغل التلفزيون ويُغلقه مجدداً ويسأل عن سائق السيارة وعن أوراق سفرني هل هي جاهزة أم لا.

وتولت عمتي "بسمة" ترتيب الشنط، ولم تسمح لي أن أساعدها في أي شيء، حيث رصت

ملابسي على السرير.

وقالت لي:

- حبيبي، الرجال لا يجيدون فعل ذلك، اذهب واجلس مع عمك.

اتصلت "ليلي" من المطار، حيث خرجت هي و"رامي" مباشرة من حفل الزفاف إلى قضاء

شهر العسل في ماليزيا وبعدها في المالديف.

سألتها:

- هل كانت رحلتكما جيدة؟

فقلت:

- طويلة، ولا أستطيع أن أتذكر شيئاً، حيث يوجد أناس كثيرون، كيف كان الأمر عندكم؟

فقلت لها وأنا أبتسم:

- لقد ذهبنا إلى "عمر"، ولعبنا "البلاي ستيشن"، وفي الساعة الثالثة ذهبنا إلى السرير

واستغرقت في النوم كالطوبه، تخيلي لو حكيت لأحد أن العُرس هنا نلعب بعده ألعاب

الفيديو.

فضحكت "ليلي" وسمعت من خلفها الإذاعة الداخلية للمطار.

قالت لي:

- أتمنى لك رحلة سعيدة، وسأنتظر زيارتك لنا، فعندما نعود سيكون بيتنا قد انتهى

وسيكون لدينا مكان لك.

قلتُ:

- أم أنك ستأتين إلينا؟

فقالت:

- بالتأكيد، سنفعل ذلك قريبًا، يجب أن تتعرف "باربرا" إلى "رامي" سواء أرادت ذلك أم

لا، ربما يكون ذلك في الكريسماس.

كانت "ليلى" تتحدث بصيغة "نحن" وهو ما جعلني أشعر بتعب الأيام السابقة. كنت

أجلس بجوار عمي "خالد" على مخدات غرفة المعيشة وأعيش جو الضجيج في البيت للمرة

الأخيرة.

أرسلت لي "باربرا" رسالة قصيرة للمرة الأولى منذ أن تركتها، تقول:

"سأكون في انتظارك في المطار".

بالطبع تشعر بالفضول.

قالت لي عمتي وهي تحتضني للمرة العاشرة:

- يجب أن تعود قريبًا، سفتقدك كثيرًا.

وجاء "عمر" وأخواته مع أسرهم، ووقفنا في الفناء نودع بعضنا البعض. وأحاطتني المشاعر

نفسها التي تلقيتها في اليوم الأول، فالنساء تبكي وتُحمِّلني بالسلامات لأمي وتقلن:

- نأسف لأنها لم تأتِ، لقد افتقدناها معنا هنا.

بدأت أجزُّ شنطتي على الأرض، وقال لي "عمر":

- يالاً، علينا أن نذهب.

احتضنني عمي "خالد" بقوة مدة طويلة وقال:

- لا تغب عنا طويلاً.

وضع "عمر" الشُّنط في السيارة "اللاندروفر"، وقال:

- هل معك كل شيء؟ جواز السفر، والتذكرة، والتليفون؟

فقلتُ:

- نعم، كل شيء.

قال "موسى" وهو يلوح:

- مع السلامة يا باشا.

فقال "عمر" ضاحكًا:

- يالاً، نجوت، ألم تشعر في الأسبوع الأخير أن الموت قريب منك؟

فضحكْتُ وقلت:

- نعم، هذا صحيح، أعتقد أنني سأفتقد جميع من هنا.

فقال "عمر":

- وأنا أيضًا سأفتقدك يا أخي، بلغ أمك أن "ليلي" بخير، إننا نعتني بها، لا تقلق.

انعطف "عمر" في طريق الكورنيش المزدهم وسار بمحاذاة البحر، وقال:

- بدءًا من الغد، ستواجه البرد مجددًا، استمتع بالدفء يا حبيبي.

سطعت الشمس فوقنا، وكانت الساعة قبل الثانية عشرة بقليل، وممشى الشاطئ شبه

خالٍ إلا من بعض الشباب الجالسين على السور الصغير يشربون الشاي أو يدخنون، والبحر

يلمع وأمامنا ظهر الميناء بالممر الخشبي الخاص به.



كان أبي يُحضرنا هنا للصيد، وغالبًا ما يكون ذلك يوم الجمعة بعد الصلاة،

حيث نجلس على الممر لساعات طوال ممسكين بالصنارات الطويلة، ومنتظر

حتى تقوم سمكة بابتلاع الطُّعم، وكانت "ليلي" أقل مني صبرًا، فبعد نصف

ساعة، تعطي أبي الصنارة وتبحث عن أطفال لتلعب معهم. فنقف أنا وأبي

بجوار بعضنا البعض ممسكين بالصنارات وننظر إلى السفن. وكان يعلمني كيفية معرفة مكان إقلاع السفينة ووجهتها، فيقول:

- انظر إلى الأعلام التي ترفرف هناك، أحدها يشير إلى الميناء الذي انطلقت منه والآخر يشير إلى المقصد.

وكانت "ليلي" تقفز بمحاذاة الممر مع الفتيات الأخريات وتجمعن الطوب وتلقينه في البحر. وأحياناً تأتي "باربرا" معنا إلى الممر، وتتكئ على الدرابزين بجوار أبي تراقب "ليلي" وتنبهها بعدم اللعب بعيداً عنا. ولكنني أتذكر أنها كانت تبتسم دائماً، وتشتري لنا غزل البنات، ومكسرات مملحة لأيي. وكان الباعة الباكستانيون يحيونها على لغتها العربية الضعيفة، فتجاملهم "باربرا" بالضحك. وفي مكان ما على الممشى، يوجد مَنْ يعزف الموسيقى ويطنل ويغني لـ"فيروز". كانت تلك الأيام جميلة. وعندما تغرب الشمس، نذهب إلى سوق السمك بجانب الميناء، فتمسكني "ليلي" من يدي وتسير بي خلال سوق السمك وتبحث عن السمك والجمبري الطازج للعشاء.

وكانت تضحك كثيراً وتأخذ الصدف من الصيادين، ولم يكن من بين الصيادين من لا يحب تلك الفتاة ذات الخصلات السوداء، فيقولون لأيي:

- والله يا دكتور، مبروك على أولادك، ابنتك جميلة ولديها وجه مُبتسم، الله يحميها ويحمي عائلتها، ويكتب لكم السعادة الدائمة.

كلمة شكر المؤلفة

أشكر عائلتي على كل ما قدموه لي، وبخاصة أنهم سمحوا لي أن أكون مختلفةً عنهم - "أنا" و"حسن خياط"، "ماجد خياط"، "إيفا تيلين"، "ليزا تيلين"، "أناليزا شليجل"، "عبد الله خياط"، "عائشة قربان"، وباقي العائلة:

إلى عائلتي العزيزة؛ شكرًا من القلب؛ الله يحميكم ويخليكم لي.

أشكر "ميريام هولشتاين" التي لولاها ما كُتِبَ سطر واحد ولم يكن ليكتمل هذا الكتاب.

أنتِ أعظم شيء في حياتي، وصاحبة الفضل في هذا الكتاب.

أشكر "سيباستيان بلوم" و"أنا ديبينبوش" و"ناتاليا بوتزر" على مساعدتهم وتفهمهم لي،

وعلى كل الوفاء والدعم الذي قدموه لي بشكل منقطع النظير.

كما أشكر من أعماق قلبي:

مؤسسة "kunst:raum sylt quelle"، "شتيفاني إريك كايدتل"، "أولجا جريازنوفا"، "رودي

نوفوتني"، "أنا أوتو"، "أنا تيمان"، "كريستيانا تيمان"، "كاترين تيشندورف"، "بيتر فافيرتسينك"،

"يان فالك".

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. أواميل الخميس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
2. اسمي نور إلسا أوسوريو الأرجنتين
3. كلي لك كلاوديا بينيرو الأرجنتين
4. بيتي بو كلاوديا بينيرو الأرجنتين
5. مشروع روزي جرايم سيمسيون أستراليا
6. لأننا في مكان آخر رشا الخياط ألمانيا
7. قصص بسيطة إنجو شولتز ألمانيا
8. الثلاثة سارة لوتز إنجلترا
9. الموت والبطريق أندريه كيركوف أوكرانيا
10. تاتي كريستين دوير هيكي أيرلندا
11. شركة الحب المحدودة أندريه سنار ماجنسون أيسلندا
12. موسم الساحرة أرني ثورارينسون أيسلندا
13. الحب لم يعد مناسباً ميلا فينتوريني إيطاليا
14. احترس من جوعي لوتشانا كاستيلينا إيطاليا
15. سارق الجثث باتريسيا ميلو البرازيل
16. السيمفونية البيضاء أدريانا ليسبوا البرازيل
17. نيزك في جالفايش جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
18. مقبرة البيانو جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
19. صانع الملائكة شتيفان بريجش بلجيكا
20. فندق الغرباء ديميتري فيرهولست بلجيكا
21. مخاوفي السبعة سلافيدين أفيدتش البوسنة
22. جامع الكتب جوستابو فابرون باترياو بيرو
23. أبسنت أيفر تونش تركيا
24. أحلام محطة بيولانت سينوكاك تركيا
25. ارحل قبل أن أنهار تونا كيرميثي تركيا
26. امرأة صديقي تونا كيرميثي تركيا
27. توباز هاكان جنيد تركيا
28. خطايا الأبرياء برهان سوهميز تركيا
29. ديستينا ماين كيركانات تركيا
30. الشيطان امرأة هاندي ألتايالي تركيا

تركيا	تونا كيرميشتي	31. الصلوات تبقى واحدة
تركيا	أسمهان أيكول	32. جرعة في اليفسفور
تركيا	هاندي ألتايي	33. لون الغواية
تركيا	سولماز كاموران	34. مينتا
تركيا	مجموعة قصصية	35. نساء إسطنبول
تركيا	إسكندر بالا	36. الحب في إسطنبول، الموت في بابل
التشيك	بيترا هولوفا	37. حدث في كراكوف
التشيك	باتريك أورشانديك	38. حُفظت القضية
التشيك	سوزانا برابنتسوا	39. ديتوكس
التشيك	إميل هاكل	40. سراق طائر البطريق
التشيك	فرانز كافكا	41. كافكا
التشيك	فاتسلاف هافل	42. المواطن فانيك
التشيك	ميلوس أوربان	43. جرائم براج
الجبل الأسود	أوجنين سباهيتش	44. المبعدون
جواتيمالا	دافيد أوجنر	45. العقل المدبر
سلوفاكيا	أورشولا كوفاليك	46. امرأة للبيع
سلوفاكيا	مجموعة قصصية	47. خلف طاحونة الجبل
سويسرا	يونس لوشر	48. ربيع البربر
سويسرا	يونس لوشر	49. كرافت
سويسرا	ميرال قريشي	50. الحياة هنا
الصين	شيو تسي تشين	51. بكين.. بكين
الصين	جوو دا شين	52. رحلة انتقام
الصين	يي ماي	53. سبع ليالٍ في حدائق الورد
الصين	يركسي هولمانبيك	54. النجمة الحمراء
الصين	جين رن شون	55. رقصة الكاهنة
الصين	يي ماي	56. بنات الصين
الصين	تشيه زيه جيان	57. الربع الأخير من القمر
فرنسا	إريك نويوف	58. المغفل
فنلندا	آكي أوليكازين	59. المجاعة البيضاء
كولومبيا	إيكتور آباد	60. النسيان
مقدونيا	بلايز مايفسكي	61. القنّاص
مقدونيا	توميسلاف عثمانلي	62. الواحد والعشرون

مقدونيا	إيرميس لافازوناوفسكي	صانع الزجاج	.63
الترويج	إنجفار أمبيورنسون	إلينج	.64
الترويج	روي ياكوبسن	صيف بارد جداً	.65
الهند	روبا باجوا	دكان الساري	.66
هولندا	تومي فيرينجا	جوي سبيديوت	.67
هولندا	هيرمان كوخ	العشاء	.68
هولندا	هيرمان كوخ	المنزل الصيفي	.69

صدر من كتب عامّة:

ألمانيا	جيرالد هوتز	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	.70
ألمانيا	هوبرتس هوفمان	قانون التسامح	.71
ألمانيا	فولفجانج باور	هاربون من الموت	.72
أمريكا	روبرت ماكنمارا	الهاشميون وحلم العرب	.73
أيسلندا	جون جنار	الهندي الأحمر الأيسلندي	.74
إيطاليا	جوفانا لوكاتيلي	يوميات صحفية إيطالية	.75
البرتغال	إيسا دي كيروش	خيالات الشرق	.76
بلجيكا	دافيد فان ريبوك	ضد الانتخابات	.77
التشيك	باتريك أورشادنيك	أوروباينا	.78
التشيك	فاتسلاف هافل	قوة المستضعفين	.79
فرنسا	جي. إم. لو كلوزيو	النشوة المادية	.80
فرنسا	أنطوان لاريس	لن أمنحكم كراهيتي	.81
كولومبيا	أوسكار بانتوخا	جابو	.82
الترويج	ثور جوتاس	الجري	.83
هولندا	دوي درايسما	عقول مريضة	.84
هولندا	يوريس ليونديك	اللعب مع الكبار	.85

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

- | | | |
|---------|-------------------|----------------------------|
| أرمينيا | ناريك ماليان | 86. النقطة صفر |
| أرمينيا | أرام باتشيان | 87. وداعًا أيُّها الطائر |
| إيطاليا | كاسيمو جارميليوني | 88. أعلامًا سعيدة يا صغيري |
| بلجيكا | ديميتري فيرهولست | 89. القادم متأخرًا |
| تركيا | تونا كيرميتشي | 90. ثلاثة على الطريق |
| التشيك | جاثسيم توبول | 91. ورشة الشيطان |
| التشيك | مارك سينديلكا | 92. خريطة أنا |
| الصرب | فلاديمير بيستالو | 93. الألفية في بلجراد |
| فرنسا | صوفي هيناف | 94. دجاج مشوي |
| فنلندا | صوفي أوسكانين | 95. التطهر |
| المجر | أندريس فورجاش | 96. لم يبقَ أحد |
| هولندا | تومي فيرينيجا | 97. هذه هي الأسماء |

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

- | | | |
|---------|---------------|-----------------------|
| ألمانيا | فولفجانج باور | 98. بوكو حرام |
| أيسلندا | جون جنار | 99. القرصان الأيسلندي |



#كتب_مختلفة #ألمانيا

"لأننا في مكان آخر" رواية تصور من خلالها المؤلفة رشا خياط صراع الثقافات الذي يحدث. تحكي عن قصة "ليلى" و"باسل"، شقيقين من أب عربي وأم ألمانية، يتقاسمان ما عاشته المؤلفة بالفعل من معاناة في حياتها في الغربية وهي من أصل عربي. تقرر "ليلى" فجأة أن تغادر ألمانيا وترحل إلى موطن أبيها في السعودية. ثم تفاجئ أباها "باسل" وأمها بصدمة أكبر بأن تدعوها ليحضر حفل زفافها من شاب سعودي، وخاصة بعد أن يسافر "باسل" إليها في السعودية ويجد مدى التغير الفكري الذي طرأ عليها. وفي الوقت نفسه، عندما يقابل "باسل" عائلة أبيه، يشترك لأيام طفولته التي قضاها في السعودية معهم. تطرح الكاتبة "رشا خياط" عدة تساؤلات معقدة عن انقسام الأسر بسبب الهوية متعددة الجنسيات من الشرق والغرب. هل ينبغي أن تغطي ثقافة بلد على ثقافة البلد الأخرى أم من الأفضل أن نوفق بينهما؟ إنها رواية عن صراعات المجتمع الثقافية.

رشا خياط



كاتبة ألمانية سعودية حرة. وُلدت في دورتموند ونشأت في جدة. عندما بلغت أحد عشر عامًا، انتقلت مع عائلتها للعيش في ألمانيا. درست علوم الأدب المقارن والأدب الألماني والفلسفة في "جامعة بون". تعيش في "هامبورج" منذ عام 2005 وتفرغت للكتابة وترجمة الأدب والتدريس بعد أن تدرّبت في قسم التحرير في دار "روفولت" للنشر. في عام 2010، أصبحت عضوة مؤسّسة "يورجن بونتو" لدعم الفنون والشباب. وتكتب منذ عام 2016 في جامعة شرق إنجلترا في نورويتش ببريطانيا. ترجمت العديد من الأعمال الأدبية مثل "ما زال نائمًا" و"الملكة الراقصة" و"الحب الأبدي". "لأننا في مكان آخر" هي روايتها الأولى التي نشرتها في عام 2016، ورسّحت لجائزة "كلاوس ميشيل كوني" لأفضل رواية.

